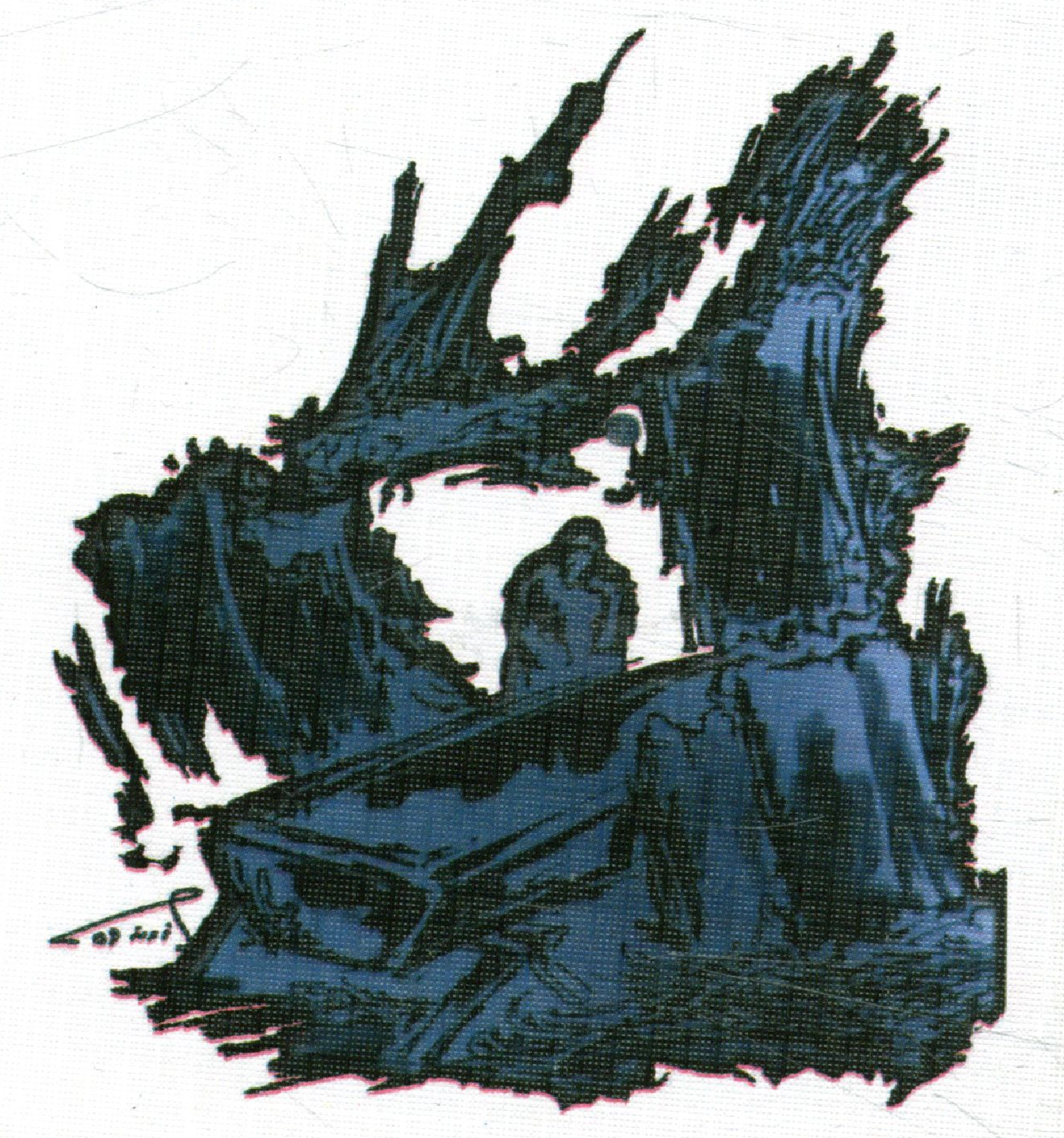
آرثر غابرييل ياك

مجموعة قصصية



لا يهم فأنت من هناك

آرثر غابريل ياك

لا يهم فأنت من هناك...!

مجموعه قصصيه

صوت القلم العربي/ جمهورية مصر العربية

١٤٣٠ هـ الطبعة الأولى ٢٠٠٩ م

الكتاب : مجموعه قصصيه : لا يهم فأنت من هناك ..

المؤلف / آرثر غابريل ياك

السودان

FIRST BUPLISHER
الطبعة الأولي

صوت القلم العربي



WWW.3LSOOOT.COM

EGYPT : MINFYA

0020164107793
ALSOOOT.COM ,INC
اكبر مجتمع عربي للكتاب وتقنيات الثقافة علي شبكة الانترنت
EGYPT – MINOFYA

EMAIL::
INFO@3LSOOOT.COM
SITE
WWW.3LSOOOT.COM

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية

٢٠٠٩/٧٥١٣

لا يهم فأنت من هناك - آرثر ريلك

إهداء

إلى تلك الأستاذة التي مارست سطوتها علي لأقوم بنشر مجموعتي القصصية الأولي

إلى تلك الإنسانة الرائعة سونيا نصيف

آرثرغابرييل ياك

تصميم الغلاف: التشكيلية السورية هوازن خدّاج

*** *** ***

المعاجم العصرية

الجماجم الصدئة

سأروي لكم حكايتي عن حياتي العجيبة عندما إنتقلت إلى الأمجاد السماوية قبل ربع قرن من الزمان (كان ذلك عام ١٩٧٢) ولم أقم من موتي- رغم المحاولات الجريئة التي بُذلت- حتى هذه اللحظة، ووضعت جثتي النحيفة التي إذدادت نحافة نتيجة تركها دون دفن لمده إحدى عشرة عاماً في تابوت أنيق مصنوع من خشب الزان وأوراق الباباي وثمار المانجو، ومعطرٍ بالصندل وبنت السودان والكركار، ونثرت حوله نباتات الريحان ذات العبق الرائع الجميل.

كان التابوت يقبع بجوار "برشي" المهترئ الذي قضيت فيه معظم أيام حياتي، المليئة بالناموس والقمل، في البحث عن السعادة بأنفة وإجلال وكبرياء المساكين. كنت أسمع كل شئ خارج التابوت: خرير الدموع المشبَّعة بالخطيئة في العيون الذائغة، ونهيق الصمت المخجل المغروس في القلوب الباهتة المنكمشة، وشخير العقول المتحجرة في الجماجم الصدئة. لا تعجب يا صديقي ولا تعجبي يا صديقتي، فالموتي يملكون آذاناً مرهفة تلتقط كل الشفرات. كان هناك صرصار غبي يقلقني ويزعجني داخل النعش، صوته أعلى من أصوات النسوة اللائي يبكين علي روح فقيد الشباب والفقر، لكن صوته كان أقرب إلى نواح العذراوات السوداوات سواد اللائي الإستوائي.

ما زلت أسترق السمع من خلال ثقوب التابوت الكئيب الذي قيد حريتي لعلي أسمع صوتها، صوت تلك الأفريقية الجميلة التي استهوت على وجداني وكل نزواتي. أين هي؟ هل ماتت مثلي؟ كيف تموت جميلة مثلها؟؟ ما زال الصرصار يقلقني بأنينه المرعب، أصوات النسوة، بكائيات العذراوات السمراوات، نحيب الأطفال في المعسكرات، والصمت الهائل المزروع على شفاه الأفارقة الغليظة.

ما زالت المعاناة تلاحقني. أنى لي التخلص منها وأسبابها ثقيلة جاثمة فوق صدري منذ أن كنت جنيناً داخل رحم أمي الدافئ إلى يوم ولادتي.

كل شباب الوطن كانوا يحملون على أكتافهم. كل الرجال والنساء والعذراوات والأطفال وكل دواب الأرض والسماء كانوا يسيرون خلفي بخطوات واثقة وحزينة. أنا الوحيد الذي لم يتشرف بهذا الإحتفال الجنائزي وتلك الأفريقية. أين هى؟ أين ذهبت؟ هل ينعم بأحضانها غازٍ آخر؟ "الأفريقية لا تعرف كيف تحب، لكنها عندما تحب فتحب بكل إخلاص ووفاء" قالها أحدهم وهو رجل أصلع يبدو أنه شغف بحب الأفريقيات.

طافوا بجثتي كل الأزقة الضيقة، ذهبوا بي إلى ميدان الحريات وكاتدرائيات الرومان الكاثوليك وكل جوامع تلك المدينة الراقدة على ضفاف نهر الجور. أخذ أنصاف الساسة وارباع القساوسة وأثلاث الشيوخ يشقشقون ويدهقنون

بخطبهم الملتوّية، المزوجة بالكذب والوان النفاق عن الديمقراطية والحرية والمساواة في المعاشرة الزوجية، بعدها هتفوا بصوت واحد قائلين:

"الموت للعسكر،

الحياة للطماطم والبنجر،

تأكلوا الحجر يا أولاد الغجر"

لم أعد أسمع أصوات النسوة ولا بكائيات العذراوات. لم أعد أرى صمت الرجال المقدس. رائحة رطوبة قذرة تسربت إلى أنفي، كان ذلك في سبتمبر ١٩٨٣. اصبت بشئ غريب: أخذت جثتي تختفي بسرعة البرق. رأيت الموتى يصوّبون إلي نظراتهم بارتياب كأنهم يشفقون على حالي. وجدت أبي الذي مات منذ تلك الأزمنة الموغلة في الحروبات الأهلية، لكنه أشاح بوجهه عني وراح في إطراقة طويلة مبهمة المعاني.

سألت عن أقرب عيادة أعالج فيها أسباب معاناتي. قال لي: " ماذا تقول، عيادة؟" وأشاح أيضاً بوجهه عني. قيل أنه المسئول عن إستقبال الوجوه الجديدة من الموتى. لقد كان صغير الحجم، جميل الوجه.

ما زالت المعاناة تطاردني. أسبابها جمة متشابكة وغير معقدة. ذهبت إلى آخر طويل وأسمر يرتدي جلباب من الحرير الهندي الناعم، قرمزي اللون. كان صوته بحق سيمفونية موسيقية رائعة تنعس له العيون وتسترخي لنسيمه الجفون. أين عيادة معالجة المعانا؟ سألته بوقار جليل لا يقل عن وقار

وجهـه الوسـيم. ودون أن يحـر جوابـاً ألفيتـه يسترسـل في ضـحكة ناعمـة، عذبة، في نعومة الحرير الذي يتـدثر بـه- ضـحكة جعلـتني أروح في سـبات عميق.

أفقت من سباتي على أصوات جوقة المنشدين من الملائكة الذين يرتلون ترانيم سماوية تنم عن شئ غير طبيعي ويسبحون الرب قائلين:

"المجد لهذا اليوم العظيم الذي صنعه رب الخلود"

إصـطف الجميـع في خـط واحـد لانهـائي ولا مرئـي: التماسـيح والحمـير والديناصورات وكل الطيور والحيوانات و الأجناس البشـرية جمعـاء. علمـت من أحد الملائكة أنـه يـوم الدينونـة. نـادى مـلاك آخـر اسمـي. كـان الجميع يرتعدون من لسعات الخوف، وكدت أنا أذوب داخـل نفسـي. ذهبـت إليـه، قال وكأنه يعزف أنشودة من أناشيد الجنة الرائعة:

"يا صاحب المعاناة، من الذي أتى بك إلى هنا؟ لماذا؟"

" كنت أبحث عن عيادة لأعالج فيها معاناتي. بحثت عنهـا في عـالم الأحيـاء ولكني لم أجدها، فقررت رغماً عن أنفي أن أبحث عنها في كـل العـالم: عـالم الأحياء والأموات والجمادات..." ودون أن أكمل إجابتي له قاطعني قائلاً:

"أتعرف ما هو سبب معاناتك؟"

أجبته بالنفي.

قال: "أنت السبب بعد أن قمت ببيعها للغريب"

سألته: "بعد ماذا؟"

قال: "لقد بعت افريقيتك السوداء التي مازلت تبحث عنها"

سألته بصوت مخنوق ووجه محمّر من الخجل: " واين هي؟"

قال: انظر وراءك.

إلتفت ورائي، لم أرى تلك الأفريقية السوداء، لكني رأيت جسدي ممزق الأشلاء. كان أبي مازال في إطراقه الطويل، عاد الصرصار يقلقني بأنينه المزعج، عدت أسمع نشيج النسوة، وبكائيات العذراوات السمراوات، ونحيب الأطفال في المعسكرات وصمت الرجال المطبق على الآفاق.

**** *** ***

الفجر الحزين

الفجر الحزين

بُغتةً تشللت عُصيبيات أنامل الشحاذ خميس بقاري مومـوي الـتي كانـت تداعب أوتار ربابة عتيقة عن عزف أغنية الفجر الحزين التي تعود تاريخها القريب إلى العهد الأسود الذي مخرت فيه آلة بيضاء قذرة مُكدسة برجال ذوو سحنات فاحمة، عباب بحر شاسع، مظلم، مُتلاطم الأمواج، إلى أرض عاقرة خصّبتها أكتاف هؤلاء الرجال. وفغر كل من كان في سوق "جـو" فاه بدهشةٍ ساطعةٍ و غبيةٍ. نعم صعُق الجميع؛ حتى الأطفال السيئي التـغذية، والكـهول المعقوفي السلاسل الفقرية، والنساء اللواتي كشفت إستدارات بطونهن عن رغبة الكائنات المتقوقعة خلفها في ممارسة دهشتها الصارخة- أسوة بالأخرين- في إطار عالمها الرحمي الخاص.

حدث كل ذلك يا صديقي عندما علم الجميع أن حمار عم يعقوب الغرباوي والمطيع أبداً قد أضرب عن أكل وجبته من القش وإمتنع عن تنفيس غضبه اليومي بالنهيق خمسة عشرة مرة. كان ينهق عندما تكون الشمس المتوّهجة- في الثانية عشرة ظهراً- عمودياً على الرؤوس المنحنية، تماماً عند منطقة إعوجاج الفقرات العنقية للمعذبين، و يخور بعد أن يكون قد أنهكته الإثنتي عشرة نهقة.

في ذلك اليوم القاتم الثقيل على النفس، والكل ملتف حوله، حيث هو هناك راقداً خلف رواكيب بائعي الفحم والسمسم والسمك الناشف، لم تفلح سياط عم يعقوب الغرباوي التي كانت تلسع ظهره ولا ضوضاء الباعة والمتبضعين الملتفين حوله من تحريكه قيد أنملة.

إستعصى على الجميع تفسير هذه الحادثة الغريبة، حتى على ذلك الرجل الذي يركب عربة " لاندروفر" طبعت على بابها – باللون الأحمر– صورة رأس ثور عنيد، مما استدعى الرجوع إلى عرافي الجيل الأول من مخترعي قرأة الكف الذي طبعته يد ناصعة البياض على خد أول من عبر البحر الشاسع مصفداً بأغلال العبودية الصدئة. ولم خيب عرافي الجيل الأول ظن الجميع، جين بكجورية سوداء، يابسة كنبته صحراوية. عيناها تتوهجان ببريق فولاذي، ناهز عمرها عدد سنوات الموت في أركان المعمورة الأربعة. قرفصت العرافة تحت شجرة العرديب ممسكة بيدها اليسرى قرع جاف ملئ بماء مخلوط بدم خروف عديم الذيل، ثم أخذت – وهى تبتهل وتسجد بصوت عال – تنثر السائل الممزوج بأصابع يدها اليمنى تجاه حمار عم يعقوب. كانت العرافة تصلي باسم اله افريقيا كلها؛ الآله آمون، ثم آلهة القبائل: كوتو اله قبيلة التابوسا، نياليج اله الجينق، اوشوسي اله الحرب، وكنغو اله الرعد والصاعقة. ذهاء الثلاثة ساعات كانت تصلي بصرخات مكتومة وعويل كاستغاثة غريق حتى انتفخت أوداج عنقها وإنطفأت توهج

عينيهـا... ثـم تقيـأت سـائلا بلـون الـدم المتخثـر و تـوارت – بفعـل هبـوب الشيطان– عن الأنظار.

إنفض الجميع متجلببين بثياب الاستغراب الصامت. لكـن دعـني اسـألك يـا صديقي: هل كنت تعلم أن حادثا كهذا يمكن أن يحدث في شهر أربعـين بعـد أن تكون قد ركلت– في سويعات فقط – عام كامل خلفك وأنت تمـارس حلمـك الجميل وراء عقلك الباطني؟. كنت بين اليقظة والمنام و المطـر لم يتوقـف عـن الهطل منذ غسق يوم الاثنين الماضي مـن شـهر ديسـمبر. أكثـر مـا كـان يقلـق مضجعك هو صفير شعب حبوبة مكنجي الهوائية، لكن قلقي كان شبه منعدم حتى انك قلت اني فقدته في متاهة عدم بحثي عن السعادة.

كانت هناك أصوات أحذية ثقيلة وأزيز ناقلة عسكرية تجوب الليـل، وكنـت مختبئاً في جوف الظلام الدامس و كانت السماء منجّمـة، غـير مقمـرة. كنـت ساعتذاك قد رحت في العزف على طبـول منخريـك: أخخخخخخـرررررر. كان حمار نومك قد جاء مبكراً. وقد بحثت أنا في ثنايا جيوبـك عـن سـيجارة أفك بها صداعي.

كل ذلك حدث عندما ظهر هو فجأة في سوق جو، كان هيئته غير مألوفـا علـى الإطلاق مما دعى أشـهر عتـالي سـوق جـو عنـدما رأه يقـول ان انسـان بهـذه الهيئة المزرية لابد أن يكون اسمـه دوبـو شـريلو قيلـو. و منـذ تلـك اللحظـة ولسبب غير معلوم، أخذنا نناديه بذلك الإسم. كـن نشـك فيـه، كـان يـتقمط

قميصا وسخا لا تعلم الكائنات السماوية من أين جلبه' ويضع على رأسه- على الدوام- قلنسوة مصنوعة من ريش النعام مدببة الأطراف' ويجلس على ركن فيه الأيسر بزهو مستفز غليون من خشب الأبنوس. لقد كان صارما بقسوة. وكان الوحيد الذي يملؤه الحبور عندما تصطاد مخالب المنية امرئ ما. هل تذكر أنه' وقبل ذلك الحادث بيوم (يوم اضراب حمار عم يعقوب الغرباوي عن الطعام والنهيق) أن حبوبة مكنجي بعد أن هدأت صفير شعبها الهوائية كانت هناك جالسة تحت الركوبة' راكوبتها؟ لقد كانت هادئة' تعبث أناملها المعروقات بحبات ودع منثورة على رمل ناعم. كانت أنيقة وهي متلفعة بثوب أبيض كالحليب وما أن رآها دوبو شريلو قيلو حتى فرك عينه الأعور بسبابته الخشنة وقال: " والله ذكرتينا بأيام شبابنا يا مكنجي!". لقد كانت تحدق إلى اللامكان عبر كوة غير مرئية' كمن تحرك عصبونات ذاكرة مخها الهشة عشما في إستحضار ذكريات قديمة كموت الجد الثالث الذي بتر- بضربة فأس واحدة- يد انجليزي في خمسينيات هذا القرن' وأخذ يضرب بها- بعد تنشيفها- على النقارة لمدة أربعة عشر شهرا فرعونيا. لقد كان باستطاعة ذلك الجد ايقاف المطر خمسة عشر شهرا افريقيا.

اعتلت صفحة السماء كتل داكنة من السحب الرعدية بينما أصوات الأحذية المثقلة بالوحل تدنو أكثر فأكثر. ما زال كلب حبوبة مكنجي نائم على غير

عادته' وما زلت أنت تمارس شعائر شخيرك السباتي. صفير حاد باستخدام الأصبعين على الأرجح. انتفضت من نومك هائجا' وسألتني: " من يكون هذا؟" لم أرد. نعم أجبت نفسي: " لابد أنه دوبو شريلو قيلو"' ذلك المعتوه الذي ينتعل حذاء مصنوع من بقايا اطار السيارة ويضع على صدره نبلة كبيرة وصليب من السكسك الملون. كان دائم الحزن كمالك الحزين. يظهر في فصل ويختفي في آخر' تماما كنوبات أزمة حبوبة مكنجي. آخر مرة رأيته كان في مراسم موت عبدالله باشيو الزانداوي' عندما كان يعزف على آلة البونينقو كما لم يعزف من قبل. كانت النسوة يمسحن العرق المتصبب على جبهته بمناديل رسمت عليها قلوب اخترقتها سهام وهو منكب على الآلة لا يعبأ بهن وبالفتيات اللواتي كن يشاغلنه: " دوبو ده ما عندو لسان..! " أحيانا كان يتوقف فجأة عن العزف ويبكي بحرقة' فيتوقف الجميع عن الرقص ويشرعون في البكاء والعويل' وعلى حين غرة ينقلب بكاؤه إلى ضحكة هستيرية مستفزة. إغرب شيئ أنه كان الوحيد الذي لا يشرب مما جعل حبوبه مكنجي وهي تمارس هوايتها المفضلة في رمي الودع تقول بعد أن وضعنا حفنة من العملات المعدنية تحت البرش الذي كانت تجلس عليه تقول: " دوبو ده رمي مخه من زمان". صفير ثاني وثالث ورابع ملحوقات بشتمة: " يا أولاد الكلاب! ". نعم انه دوبو. ترررررت تتتت. فرقعات لطلقات الجيم ٣ جاءت مخنوقة وكاتمة' أغلب الظن أنها إخترقت جسد

انسان ما: " كتلو والله كتلو...!". إنتفضت وأنت تردد تلك العبارة وعيناك يتطاير منهما يتطاير منهما شرر الفزع.

في تلك الأثناء أخذت أصوات الأحذية المثقلة بالوحل تنأى رويداً رويداً وبعض العبارات تسمع بين الحين والآخر:

" ديل كلهم متمردين "

....

" عواليق راسمالهم طلقة بس! "

....

" الله أكبر.. الله أكبر"

" يا مجاهد جبت البتاع معاك؟"

إزدادت لهفتي إلى " البرنجية" وكادت أم مخي الجافية أن تنشطر بفعل صداع الخرم اللعين، كان المطر ينهمر بهدوء في الخارج، وكان كلب حبوبة مكنجي يعوي باستمرار يقطعه حينا نقيق ضفدعة جافة الحنجرة وحينا آخر نعيب بومٍ ينذر بشيئ ما.

حقاً انه لصباح شاحب ثقيل، يختلف عن كل صباحات الخريف عندما نزعنا بتثاقل مخجل أقنعة اليقين عن جفوننا المتورمات... سألتني عن العرافة السوداء، أنت دائماً هكذا بأسئلتك المجوجة، طَنشتك، ذهبنا إلى حيث قطية حبوبة مكنجي، لم تكن هناك قطية، كانت حبوبة مكنجي هناك منتصبة

كما الجبل الشامخ، وجسدها المخرّم والذي بدا كالغربال، غارقا في بحر من الدم الأسود، أما ثغرها فقد كان مضرج بزغب شبيه بزبد البحر الشاسع الذي عبره الأجداد الأوائل، تتخلله ابتسامة بلون القوس قزح، وبجانبها تمددت جثة دوبو شريلو قيلو، بينما انتحى الشحاذ خميس بقاري مومـوي ركناً قصياً، وحيداً يعزف على ربابته العتيقة أغنية الفجر الحزين التي تقول......

*** *** ***


الرشوة

المشوّه

— مجاك..يا مجاك

لم يجب صاحبنا على زوجه التي كانت تناديه في تلك الساعة التي أعلن فيها الكون عن ميلاد يوم قشيب وأشعة الشمس الصباحية الدافئة تتسلل عبر ثقوب تلك الستارة الشفافة لتسقط على وجهه الذي بدا كوجه من آب لتوه من معركة خاسرة. نهض من مضجعه بتراخ متكلف ليظهر لعقيلته بأنه لم يسمعها رغم تأثير ما يشبه طنين ملكات النحل علي أذنيه حين نادته بذلك الاسم الغريب. ثم اتئاد نزرا مانحا نفسه سانحة للتروي متجنبا بذلك مأزق الانزلاق في تفكير تفضي إلى عواقب تفضح تأويلاته التي أرتأي أن لا يعرب عنها ألآن. و بينما صاحبنا ذلك – و أعتقد أن من واجبك الآن أن تعرف أسمه الذي ربما قد لا يكون غريبا عليك هو كاميلو نتالي بازقار – يقلب احتمالات أن تكون زوجه ما زالت فريسة نوبات حمي الملا ريا التي جعلتها تهلوس لمدة ثلاثة ليال دون أن تتوقف عن التفوه ببعض الكلمات الغريبة و التي فسرها أحد جيراننا، بأنها كلما

لحكيم أفريقي قديم وتعني: أن تعاني من أجل سعادة الآخرين فهذه هي السعادة نفسها.

هكذا قال جارنا منقو والذي طرد من أحدى الدول الأجنبية لأنـه. و حسـب تقارير شرطة تلك الدولة، متهم بممارسة الدعارة العلنية وذلك لأنه ضبط و هو يمارس العشق مع ثلاثة من الشقراوات في آن واحـد و في أحـدى الحـدائق العامة، دونما اكـترات لـذهول السـابلة الـذين تسمروا في أمـاكنهم وهـم في طريقهم إلى الكنيسة لحضور قداس يوم الأحد.

دعنا نعود إلى كاميلو نتالي بازقار مرة أخرى، و بينما هـو يقلـب كـل تلـك الاحتمالات، باغتته زوجه مرة أخرى و هي تقول: " يـا مجـاك في شـنو أنـا ناديتك هسي مليون مرة و أنت ما داير ترد في شنو؟"

رمقها كاميلو بازقار نتالي بنظرة عدائية لم تألفها ماريتا خـلال زواجـهـما الذي تم بعد مجزرة ليلة العرس التي أرتكبها الجيش، فاكتفيا فقط بمراسـم تقديس زواجهما في كاتدرائية المدينـة دون أن يقيمـا حفـل تتـويج عرسـهما خوفا من أن تحوله الجيش إلى حفل جنائزي مرة أخرى.

ألآن فقط تأكد كاميلو نتالي بازقار أن المقصود ب مجاك هو نفسه، وأن زوجـه لم تكن تمارس طقوس كوابيس حلم مرضها، بل كانـت جـادة . يـا تـرى مـن يكون مجاك هذا؟ ربما يكون شخص على علاقة سرية بزوجي. حاول كاميلو نتالي بازقار أن يجد تأويلا لذلك و لكـن دون فائـدة، فـآثر أن لا يخـوض في غمار نقاش صباحي يعكر صفو يومه، لكنه رأى في امتناعـه عـن السـؤال عـن مجاك هذا ليس إلا أهانه لرجولتـه و تقليلا مـن شـأنه. خاصـة عنـدما يعلـم

بذلك منقو الذي منح تأشيرة خروج بلا رجعة من تلك الدولة الأجنبية، و الذي جاءه في يوم من الأيام ليتوسط في حل سوء تفاهم نشأ بينه و بين زوجه، فزاده ضغثا على أبالة حين استشاط غضبا في كاميلو بازقار نتالي قائلا:

— ياخي مرتك العامله زي ابوقدح دي ما طلقها وشوف ليك غيرها.

إحساس غريب أجتاح نفس كاميلو نتالي بازقار. فجأة وجد نفسه يرسم في مخيلته صورة ل مجاك. رأي مجاك يقبل زوجه في غرفة معيشتهما، ومن أسلوب مداعبتهما تيقن أنهما يعرفان البعض منذ أمد ليس بقريب. أعجبه ذلك المنظر، فلأول مرة يرى زوجه في مثل تلك الحالة: سعيدة و منتعشة كأنها اكتشفت جمال الحياة لتوها. امتزج عليه الأمور، فتارة كان يرى أن الذي يمارس الحب في حجرته ليس ألا هو نفسه كاميلو نتالي بازقار ، و تارة أخرى كان يراه ذلك الشخص الذي يدعى مجاك.

و بينما كاميلو نتالي بازقار غارقا في حلمه ذلك، حائرا، بين ما يستوجب فعله والاستمتاع في الوقت ذاته بذاك المنظر الذي قتل في نفسه غيرته كرجل، شعر بأن شخصا يهزه هزا عنيفا و مناديا إياه قائلا: " مجاك يا مجاك" نظر و عيناه تزوغان من أشعة الشمس التي أخذت ألان في الانسياب بين أوراق شجرة المهوقني وتسقط علي وجهه و هي تريد بذلك إيقاظه أيضا. فتح كاميلو نتالي بازقار عيناه ببطء الحريص على التواصل في حلمه، فرأى

منقو، صديقنا المتهم بممارسة الدعارة في بلد أجـنبي واقفا فـوق رأسـه وهـو يقول: " عليك الله يا مجاك أنت لو ما قادر ليها البيخليك تشربا شنو؟"

ذهول ممزوج بعدم الخضوع لمؤامرة خفية تحاك ضده كان هو الإحساس الـذي طغى على كاميلو نتالي بازقار و هـو يـرى فـم صـاحبنا ينطـق بـذلك الاسـم، فأدرك أن زوجه لم تكن الوحيدة التي تناديه بهذا الاسم اليوم. ثم أدرك أيضا أن الأمر لم يكن لينحصر في مجال المعرفة الضيقة فقط بل ذهب أبعد من ذلك حين ناديته أنا بنفس الاسم رغم معرفتي به، والتي لم تدم أكثر من ليلتين.

هرع كاميلو نتالي بازقار إلى داره وأنفاسه تكـاد أن تسـبقه، و دون أن يـدري ألفي نفسه في وسط غرفته وهو ينظر إلى وجهه في المـرآة جاهـدا أن يعـرف أن كان هو مجاك أم كاميلو نتالي بازقار. و الحقيقة التي يجب أن تقال في مثـل هذه الحالة المحيرة هو أن وجهه كان يشبه تماما وجه شخص يدعى كاميلو نتالي بازقار، و في الوقت ذاته و بالإمعان في شكل أنفـه الشـاذ، والتجاعيـد الصغيرة التي تزخرف عنقه تجده ودون أيه ريبـة بأنـه لـيس ألا مجـاك. و لكي لا نتهم بفقدان العقل، و لممارسة الحياد التام حتـى لا يـتهمني صـديقي بأني منحاز إلي هذا الاسم أو ذاك ، يجب أن أقول و بذكر الاسمـين معـا أن كاميلو نتالي بازقاز و مجاك هذا لم يعرف أيهما أسمه ألحقيقي حـين أمعـن النظر في وجهه مرارا وتكرارا.

"ما الفرق بين أن يكون أسمي كاميلو نتالي بازقار أو مجاك؟ هل الاسم يشبه وجهي أم وجهي يشبه اسمي؟ إن الكل الآن ينادينى مجاك لذلك لا مفر لي في أن أتقبله رغما عن أنفي. ولكن ألم يكن ألاسم هو هوية الإنسان؟ خمس وأربعون عاما وأنا أحمل هذا الاسم حتى أصبحت أنا الاسم و الاسم أنا. فأنيَّ لي أن أبدل أسمي إلي مجاك رغم أنـي لا أشبه ألا كاميلو نتالي بازقار. لم يستطيع مجاك أو كاميلو نتالي بازقار في أن يجد مخرج لهذه المؤامرة السرية التي حاكها الجميع ضده ببراعة . نعم الجميع : أطفاله، أقاربه و حتى أصدقائه أصبحوا ينادونه ب مجاك.

هكذا قبل صاحبنا بذلك الاسم مجاك مخافة أن يودع مصحة للأمراض العقلية والنفسية، خاصة عندما الح لـه "منقو" بذلك و أخبره أن هناك في البلدان الأجنبية مرض مشابه لمرضه ذلك، قائلا:" في إيطاليا كان في واحدة مريضة بنفس المرض. نست أسمها، والأسوأ من ذلك كانت تؤمن باني زوجها"

— وأنت سويت شنو؟

— أوف كورس ما قصرت معاها . أرحم المساكين يرحمكم من في السموات

لذلك أيضا و حتى نلتزم الحياد كما تعهدنا سابقا، فلا بد علينا أن نسقط ذلك الاسم كاميلو نتالي بازقار لكي لا يظن مجاك بأننا معشر الرواة نشارك أهله و أصدقائه تلك المؤامرة التي أحيكت ضده بذكاء. هكذا صار صاحبنا يحمل ذلك الاسم مجاك طيلة الفترة التي عاشها في القرية، و نسى كل امرئ

أمر ذلك المجنون ألذي فقد أسمه، حتى مجاك نفسه كان قد نسى أن شيئا كهذا قد حدث إليه. إلى أن أنقلب كل شئ رأسا على عقب في ذلك اليوم العابس، و أصبح مجاك نفسه على حافة الجنون. حدث ذلك عندما جاء وفد من المنظمة العالمية للصحة العقلية و يرافقهم مدير شفخانة القرية الذي كان يبدو من هيئته أقرب إلي متشرد منه إلى شخص يهتم بصحته ناهيك عن صحة أهل القرية، ونادوه مخاطبين إياه باسم غريب وهو كاميلو نتالي بازقار .

أراد مجاك أن يشرح لهم بأنه لابد أن يكون هناك سوء في التفاهم و أن اسمه ليس كاميلو نتالي بازقار. وقبل أن يتفوه بكلمة قال له رئيس الوفد أنهم متفهمين لما حدث له طيلة هذه السنين، و أن مكتبهم القابع في صدر تلك المدينة التي بلون الثلج كان متابعا لتطورات وباء المرض النفسي الذي أجتاح كل القرية و لم ينجو منه إلا شخص واحد هو كاميلو بازقار نتالي، والذي قبل على مضض أن يصبح مجاك حتى لا يثير حنق أهالي القرية الذين عانوا طوال هذه الحقبة من مرض الجنون، والذين الآن —— بمساعدة المنظمة العالمية للصحة العقلية —— قد استعادوا صحتهم النفسية.

لم يقبل مجاك بذلك رغم أن كل القرية، بعد زيارة الوفد، أصبحت تناديه ب كاميلو نتالي بازقار. لم يعرف مجاك أن كان هو المجنون أم أن القرية بأكملها ما هي إلا مصحة كبيرة، و لم يعرف أن كان أسمه مجاك أو كاميلو

بازقار نتالي. لكنه فقط، و دون أن يلقي بنفسه في متاهة البحث عن شخصيته الحقيقة، كان يعلم تماما بأنه ليس ب مجاك أو كاميلو نتالي بازقار، بل نسخة مشوهة من الاثنين.

٭٭٭ ٭٭٭ ٭٭٭

حدث في بيت الحجاج



حدث في بص الحاج يوسف

كان البص غاصاً بالركاب إلى أذنيه، مكتظاً بالمعوّذين فقط. الشمس غضبانة أشد الغضب وهي ترسل بأشعتها نحو الأرض لتلفح رؤوس الفقراء والبؤساء واليتامى. الشمس نفسها ليست لديها مثقال ذرة من الرحمة رغم أنها تعلم باشتعال الاسعار وصعوبة المواصلات وكثرة الهموم وشدة الفلس على الجيوب. يا للخيبة! حتى أنت يا شمس أصبحتِ مثلهم.

تحركت العربة من ميدان أبوجنزير. ليس هناك مجال لرئتيك أن تتنفسا على راحتيهما، ليس لانك مصاب بإلتهاب رئوي أو مرض صدري خبيث. كل ما هنالك هي تلك الرائحة القذرة، لا أعلم هى رائحة دورات المياه الموجودة وسط العاصمة أم رائحة مياه الجلود البقرية المتعفنة التي يستمتع بها أهالي منطقة اللاماب والأحياء المجاورة لدبغة الخرطوم. أجل، لقد كانت رائحة تلك الكتل البشرية الممزوجة برائحة العرق والفقر. تحركت العربة وأنا طائش البال غير مرتاح الحال، كل أفكاري كانت تجول حول أسرتي التعيسة كما يجول عزرائيل حول مريض أقترب إلى لقاء ربه.

بلغ بي القلق ذروته حيث لم أستطع حمل الكيس إلى أولادي نسبة لخواء جيبي الذي نسج فيه العنكبوت خيوطه. كنت أتخيل منظرهم البرئ وهم

يرمقوني آتياً صفر اليدين. من الأفضل أن تموت شجاعاً في ساحة القتال من أن تعود وأنت متوج باكليل الهزيمة وأوسمة المذلة. منظر بايخ لا أعرف كيف أتقبله. هل حياتي كلها تسير على وتيرة واحدة مملة دون أن يطرأ عليها أي تغيير. أنجبتني أمي فقيراً باحدى مدن الجنوب المتخلفة وفي حي من أحيائها القذرة، ربما أورثني أبي هذا المرض اللعين، فهو نفسه كان فقيراً لا يملك من مال الدنيا شروى نقير. يا ليت كان الأموات يتحدثون إلينا لاسألك يا أبي عن سر هذا الطاعون ومن أين جلبته. وأنت يا خالقي، فمنذ أن كنت طفلاً صغيراً بريئاً إلى أن بلغ بي الحال كهلاً حقيراً لم تفوت على يوماً من أيام الأحاد إلا وتجدني مهرولاً إلى الكنيسة، ألم تصلك صلواتي؟ مرت على أربعون عاماً في هذه المعمورة، ألم تكن هذه السنوات كافية لبلوغ صلوات؟ كل الأهل، كل الأصدقاء وكل الفقراء يعرفون ذلك، حتى ذلك القس الذي تعرفه كل النساء، والمطران الذي يضع في أحد أنامله خاتماً كبيراً من الذهب الخالص– هو أيضاً– يعرفني. أجل كلهم يعلمون اني مواظب على الصلوات حتى القس الإيطالي الذي صلى بنا في عيد الكريسماس وهو يضع على رأسه اكليلاً ذهبياً ويرتدى خاتماً من الذهب يدل على برجوازيته و ... اللعنة على الذين يقبلون أنامله وأنا منهم. ما أجمل أن تعيش فقيراً لتتذوق طعم الحياة وحلاوتها! ليس مهماً أن تكون مطراناً لكن المهم أن تعمل عملاً

صالحا. رغم ذلك يا الله أملي فيك كبير وإيماني بك لم يخيبه خائب ولن يشوبه شائب.

عرضاً وبغتةً توقف أزيز السيارة كمريض السل الذي يتوقف برهةً بفعل نوبات الكحة، أو كأوركسترا موسيقية توقفت فجأة عن عزف سيمفونية نازية عقيمة وبالية. توقفت العربة أمام مركز شرطة كوبر. لا بد أن هناك شخصاً قد سُرِق لا أعرف أمحفظةً مليئةً بالجنيهات والدينارات التافهة، أم كيس ملئ بالأكل؟ ولم لا فالكل جائع عدا الحكومة. أخذت جثتي تفرط في إفراز العرق، إمتلأت نفسي رعباً، توقف شعر راسي، كاد العالم أن يسمع دقات قلبي. إرتعش كل عضو في جسدي، فأنا أخاف رجال الشرطة، إن قبضوا عليك كان نهارك جنة وليلك نعمة، فهم علماء في علم الضرب والتنكيل والتعذيب...كأنك في ركن من أركان الجحيم. كلما رأيت مركز للشرطة يعود بي شريط الذكريات إلى أيام مضت عندما تم القبض علي في ما يسمى ب "الكشه" وأودعت سجن أمدرمان تمهيداً لتسفيري إلى الجنوب. هناك رأيت أغرب شئ في حياتي: رجل ضخم الجثة، مفتول الشارب، بارز تجاعيد الوجه، يجر صبياً– عنوةً– من رجليه ويختفي به في أحدى الغرف المظلمة. كان الصبي يصرخ بشدة، وكانت أنفاس الرجل تسمع،متلاحقة، وبعد خمس دقائق عاد الرجل وهو في غاية النشوة والسعادة. أما الصبي فبدا كأنه إرتدى بنطال من الدم.

قطعت علي نسيج هذه الذكريات، أصوات صادرة من مقدمة البص:

— معليش يا بت العم، انحن كلنا سودانيين.

سمعت أحداهن تقول بلهجة خرطومية تشوبها لكنة جعلية: "عيب عليك يا أبودقن يا سخيف يا ماعندك أدب". قال أحدهم بعد أن إسترسل في ضحكة إستفزازية قصيرة وساخرة: "شنو يا مولانا ما تحترم دقنك دا". وكثير من الكلمات المؤنبة التي كانت تنصب نحوه، أما هو فلم يعبأ بكل هذه الكلمات، كأن المقصود ليس هو إنما شخص آخر. كان صاحبنا هذا يرتدي جلباباً أبيضاً كجلباب المطران ويحمل في يده سبحة طويلة لامعة الحبات، لحيته كثيفة تصل إلى سُرته وعلى جبهته ذبيبة صلاة كبيرة سوداء ومنتفخة. كان يتمتم بكلمات فصيحة كمن يبدو أنه متمسك بأهداب الدين، لكني لا أعتقد ذلك، نزل الكمساري ودخل مركز شرطة كوبر. بعد هنيهة جاء بأحدهم لم أتبين أمامه من خلفه كأنه أحد البراميل التي توضع عليها القمامة، وله كرش كبير ومنتفخ مثل بطن إمرأة في الشهر التاسع، أما خلفه فقد كان شيئاً قبيحاً بكل صراحة، لا أعرف أرجلاً كان أم أمرأ؟ لقد كان رقيباً على أيه حال، أو قل شاويشاً.

ركب الرقيب البص وهو يصيح بصوت جهوري وذرات السعوط تتطاير من شفته السفلى قائلاً: "وينو الراجل العبيط ده؟" أشار الكمساري إلى الرجل الملتحي، وما أن رأه الشرطي حتى إستحال صوته المرعب إلى صوت انثوي

متخاذل، فحول مجرى سؤاله بسرعة ولباقة إلى إمرأة سوداء كانت تقف أمام الرجل قائلاً: "يا مره الراجل ده مجنون ساكت، هسه أنا بسوقو معاي النقطة وبعدين مافي داعي تيجي معانا." وأردف قائلاً بعد أن بلع ريقه: "كمان إنتي مره لازم تستري حالك".

رُفعت الجلسة، نقطق القاضي دون أن يلقي نظرة إلى حيثيات الحكم. لا إعتراض، من يعترض مصيره بيوت الأشباح أو السجن وكان الله في عونه كما كان في عون صبي سجن أمدرمان.

كانت تلك المرأة جنوبية عرفتها من ركاكة لغتها عندما كانت تسب. نزل الرقيب و بصحبته الرجل الملتحي. قال أحدهم بعد أن ساد الصمت الباص: "تتخيلو يا جماعة الراجل ده رئيس اللجنة الشعبية بالحي." لم يعلق أحداً. صفر الكمساري منبهاً بذلك السائق لاستئناف الرحلة إلى الحاج يوسف-الوحدة. تحرك البص بعد لأيٍ ومشقة كأنه يرفض أسلوب ذلك الشرطي. رأيت الملتحي يدخل يده في جيبه ويخرج ورقة صغيرة مطوية دسها في يد الشرطي الذي تركه في حال سبيله.

حتى الآن الحيرة والدهشة تخيّمان على، و بلغ بي الجنون حداً لأجعل ذهني صافياً لفهم الغموض والأسرار التي تلف هذه العربة. وسوست لي نفسي وقالت في صمت كئيب: لا بد أن الرجل أسمعها كلاماً مقزعاً. إقتربت العربة من حلة كوكو، فسأل الكمساري: " في نازل؟". لم يرد أي شخص.

كرر السؤال مثنى وثلاث، ردت إمرأة بدينة قائلة: "أيوه، أيوه". والصقت ردها بزعل وهي تقول: "يا جماعة من ما الله خلقنا، حلة كوكو دي دايره ليها سؤال. إنت جديد في الخط ولا شنو يا كمساري؟". كان جسدها ينضح برائحة الخُمرة والكَبريت، ومساماتها تخرج عرقاً نديا معطراً بالصندل. وهي في طريقها إلى النزول، أمضت خمسة دقائق، تفوه الكمساري بعد أن تملكه الغضب وقال: " يا حاجه نجيب ليكي أسانسير عشان تنزلي بيهو؟". أجابت البدينة بسرعة وكأنها توقعت السؤال: "لا جيب لي جوكر يا ولدي."

ضجت العربة بضحكة حزينة، أما هي فراحت في ضحكة ساخرة ومثيرة تشبه تلك الضحكات التي تحملها إليك نسائم منتصف الليل من البيوت المشبوهة وأنت تترنح من شدة النشوة على قارعة الطريق فتثير بذلك جميع عواطفك المكبوتة. قلت لا بد أنها إمرأة ... صفر الكمساري، تحركت العربة، وقفت في محطات كثيرة، ركب أناس قليلون ونزل كثيرون. جاءت محطتي، لقد كانت آخر محطة في كرتون كسلا. نزلت ولحسن حظي نزلت معي تلك الجنوبية، عقدت العزم على أن أسألها. كانت جميلة، طويلة، ناعسة العينين رغم ما حاق بها. إذا أردت أن تعرف قدرة الخالق فتأمل جمال الطبيعة. ألقيت عليها سلاماً فردته بإحترام. سألتها عما حدث بالبص، ما كدت أكمل سؤالي حتى إغرورقت عيناها بالدموع وأخذت تنوح

نواحاً شديداً كإمرأة في الخمسين من عمرها فقدت أبنائها وزوجها دفعة واحدة ولم يبق في حياتها إلا إنتظار أجلها المحتوم. الفيتني اهدئ من عويلها وبكائها المُر، بعد أن هدأت أمواج بكائها وسكنت، أدارت ظهرها دون أن تنطق حرفاً، فعلمت أن ذلك الملتحي قد فعلها. سرت قشعريرة باردة في جسدي، شعرت بتقزز وكراهية نحو الحياة، مر على خواطر شريط صبي سجن أمدرمان، تعشمت لو فتحت الأرض جوفها لتبتلعني. شعرت بدوار في الرأس، بعدها لم أعرف ماذا حدث لي، لكنني في الصباح وجدت نفسي راقداً داخل كوخي الحقير وحولي أطفالي الصغار يبكون من لسعات الجوع.

*** *** ***

حكاية مشفو

حكاية مشنقو

" مشنقو!.. يا مشنقو! "

كان يمسح العرق من جبينه الملتهب بكُم قميصه الملتصق بجسده الناحل كأنه عود ذرة جاف. بدا بين القميص وشخصه رباط ذهبي وثيق لا يمكن لاحد أن يحل أواصرهما رغم ما إنكشف للقميص من رغبة عارمة في فصم تلك العلاقة التي أنهكته فأمسى لا هو قميص و لا هو بشيئ يصنف في عالم اللبس ناهيك عن عالم الأناقة وصيحات الموضة.

كان النهار معكرا، شمسه الباهتة قبعت على كبد السماء، و على المرء ان يتنفس بفيه وخيشومه ليعوّض ذلك العوز الأوكسجيني المصحوب بالرطوبة العالية وذرات الغبار العالقة في الهواء. قطيع من الأغنام مر أمامه وأثار غباراً في وجهه وهو لا يعبأ بذلك، و لم يعبأ بمدام خميسة التي كانت تناديه، أو بالأطفال الذين كانوا يعيرونه لأنه تبول في بنطاله المتسخ، والملئ بالخرائط العشوائية كأنه اطلس قديم الغته وزارة التعليم من المنهج الدراسي.

كان يترنم بأغنية مأتمية مؤثرة مثل تلك التي لا تتناهى إلى السمع إلا عندما يصيب سهم الحُمام عذراء في خضرة أيامها و حلاوة عمرها. بان من ذبذبات

صوته ونثار الريق المتطاير من بين شفتيه وترنح مشيه غير المتسق مع أغنيته تلك، أنه أغرق نفسه في الشراب إلى اذنيه الكبيرتين كأذني أرنب افريقي حقير. كانت شفته السفلى خمريه كما لو كانت قد قُرمِدتْ بأحمر شفاه للتو، ووجهه مجعداً تخلله ندوب سوداء الأمر الذي جعل عبدالحكم اسماعيل صاحب الدكان الوحيد في حينا يسائله بعد أن حوقل وبحلق فيه قائلاً: " يا مشنقو هل انت مسئول عن اصلاح هذا الكون ولا شنو؟".

يقضي مشنقو معظم نهاره وشطرا كبيرا من ليله حول موائد الشراب البلدي، لا يبرح " أنداية" إلا وقد نفد شرابها، وأوصدت أبوابها، فيشد لجام رحاله بين الأزقة و الحفر التي غمرتها مياه الأمطار، باحثا عن مائدة أخرى يمضي فيها بقية يومه في حوار شيق- لا ينقطع- بين شفتيه المتورمتين وحوريات الجن المدفونات على حواف القوارير التي يعب منها. " دا غُنى بتا شنو يا مشنقو؟" قاطعته حبوبة مندومة بسؤال مباغت بعد أن بترت صلاتها عند الفقرة التي تقول: يا ممتلئة النعمة، الرب معكِ، مباركة أنتِ في النساء . ثم التفتت كأنها توجه حديثها الى المارة: " امبارح القريب ده انت غنيت ذي دا يا هو جنه اختي مات...والله انت كان جيت بجاي تاني ابوي ما ولدني! "

كان مشنقو يقطن قطية صغيرة على شاطئ نهر الجور. لا أحد يعرف قبيلته أو من أين جاء ومتى؟ نسجت حوله الكثير من الأقاويل: قيل انه جاء في ذلك

العام الذي قضى فيه الجراد الصحراوي على كل نبت وقتل ثلاثة آلاف نفس لأنهم ما أطاعوا وصايا أجدادهم فاصابتهم لعنة الأسلاف. آخرون تكهنوا وقالوا انه تخرج في احدى الجامعات الأجنبية ويعرف الكثير من لغة أولاد جون. " ده زمان كان وكت ناس شايتيس جابوهم في مستشفى واو هو ياهوكان بترجم ليهم.." قالها التمرجي المسئول عن غسل الموتى عندما سألته عن مشنقو. أما مشنقو نفسه عندما سألته، قال لي بلغة عربية فصيحة مطعمة ببعض المصطلحات الإنجليزية، شأنه في ذلك شأن مثقفي اليوم: " ما أقسى أن تكون نابغة في العلم دون منافس! هل أحدثك عن كلية غردون التي تركتها في منتصف المشوار؟ ام احدثك عن الأفريكان آرتس التي درستها في السربون؟ الم يقال أطلبوا العلم ولو في الصين ؟ طرت دايركت الى هناك حيث ينهي الانسان حياته حرقا احتجاجا لأن هناك طفلاً مات جوعا. ما أجمل النساء في النمساءحيث الغدائر الذهبية المتموجة! أوه ماي غود فينيسيا أسطورة الفن المعماري العريق".

قلت: " ولماذا تهمل نفسك هكذا؟" صمت فترة وهو يرنو إلى الشمس التي اذنت للغروب، وارتسمت على محياه سيماء العبوس واليأس. أطرق طويلا، ثم رفع رأسه فجأةً كمن لدغه العقرب، وطفق يرسل الي نظرة حادة وقال:

" ها أنت شاب خريج عاطل وخامل عن اداء اي واجب، تماما كالجثة المحنطة وليس حرا. لا أهل ولا وطن ولا دين ولا هوية لك..."

" لي وطن وأهل ودين وهوية..." قبل أن أكمل كلامي قاطعني بحزم قائلاً:

" ماذا يعني كل ذلك في غياب الحرية؟ لا شيئ على الاطلاق." ثم واصل حديثه قائلا:

" الحرية تجعلك تصنع ما لا تستوعبه عقل رئيسك الضيق".

احترنا جميعا في أمر مشنقو هذا: لا صديق له و لا تزوره زائرة من بائعات الهوى اللاتي يجدن التجوال في ظلام الليل. كان يعرف معظم لغات قبائل الجنوب، أحيانا كان يحدث نفسه بلغات غريبة لم نسمعها من طوال حياتنا، ويقرأ كتباً حروفها متعددة الأشكال: أهرامات، مربعات، مثلثات، طيور، ضفادع " ولد دا عجيب خلاص!" قالها جدي وهو يغرغر فمه بالماء ثم واصل اندهاشه بعد أن أخرج من بين أضراسه- مستخدما قشة صغيرة- خُلالة لحم جاموسي وتكرع في الهواء قائلاً:

" حتى ماحندو مره بتاع كجور دي ما بتعرف حاجه عنو شوف كدي!"

- مشنقو..يا مشنقو..

بصوت عال نادته مدام خميسة هذه المره وهوما زال يترنم بأغنيته تلك، فامسكته من ياقة قميصه بعد أن انزلت البقجة التي كانت على رأسها و هي تقول:

" يا مشنقو انا دايره دين بتاي..."

حاول مشنقو الافلات وهو يقول لنفسه: على المناضل أن يتجاوز مأزق اللحظة.

جمع من سكان الحي والمارة التفوا حولهم. خرج الأطفال من الأكواخ بثياب ممزقة تظهر بطونهم الدائرية التي تنم عن سوء في التغذية. جاءت ميري عبدالرحمن الفكي المرأة التي تعرفها مدينة عن بكرة أبيها. كنت أُسائل نفسي: كيف لإمرأة مثلها أن تسمح للرجال بالاختلاف الى دارها وهى تقطن لوحدها؟. " دي مره ما كويس..كان داير مشنقو لكن والله راجل...!" قالتها حبوبه مندمه ثم استشاطت فيّ غضباً بعد ان سحبت نفسا عميقا من تمباك " الكُتكُر" و أردفت قائلة:

" أوك تمشي جنب بيت ميري دي حتى امه مات زالان منو وكمان ابوه ما ماروف يمكن من ناس جيش الجابوم زمن انيانيا وان..."

اقتحمت ميري عبدالرحمن الفكي الجمع وجسدها المدهون ب "الكركار" يبرق في ذلك الجو المشحون. حاولت أن أبلع ريقي وأنا ابحلق فيها بذهول لم أفق منه إلا بضربة علي قفاي من حبوبه مندمه.

أمسكت ميري بمشنقو من عنقه ولطمته على خده فطرحته أرضا هوه يقول:

" الله يسامحك يا بت عبدالرحمن الفكي الله يسامحك". فردت ميري بغضب:

" الله يسامحني بتاع شنو انا كمان ما دايره منك دين"

أخذت النسوة ينسحبن. شيئاً غير مألوفاً أن تكون ميري في وسطهن. همست احداهن دون أن تسمعها ميري قائلة:

" مش دي أكيد مُنمِرة على حاجة" قال المجنون الذي كان دائم الجـري ولا يقف إلا عندما يرى ميري بعد أن قهقهة و صمت فجأة: " يا نسوان أعملوا حسابكم من رجالكم..." ثم أردف بعد ان نظر الى ميري وبصق على الأرض: " انتو عارفين قائد الحامية ما بيمشي عمليات ليه؟ اسألوا بت عبدالرحمن الفكي".

مر ثلاث أشهر دون أن ترَ فيه مشنقو. لأول مرة شعرنا بأهمية وجوده في حياتنا. مرارة حنظلية الطعم اخترقت حياتنا بغتة كما لو أحدقت بنا كل الشدائد، أخذ الأطفال يسألون عن سر اختفائه المفاجئ. دعت حبوبة مندمة جميع أهل الحي للصلاة إلى الله ليستجيب لدعواتهم. حتى ميري عبدالرحمن الفكي التي تأثمت وإستغفرت طلبت أن يسامحها الرب لأنها كما كانت تقول السبب الرئيسي في اختفائه. تكون وفد من الرجال والنساء قام بزيارة بحثية لكل الأحياء المجاورة، لكنه عاد بخفي حُنين، جابت ميري انـدايات أحياء " نزريت"، " خور كرنقو"، " حله زانـدي"، " وونـوك"، "انـدايا انيانيـا" ومشارح كل المستشفيات حتى قيل انها (ميري) إستغلت علاقتها القديمة برجال الأمن والجيش والشرطة و كلفتهم بالبحث عنه. كلنا كنا نسألها،

لكنها كانت لا تنبس ببنت شفة. تغيرت هيئتها كثيرا و تبدلت، لم تعد ميري عبدالرحمن الفكي التي كنا نعرفها.

في فجر أحد الأيام ونحن نغط في نوم عميق، سمعنا صراخا لأمرأة ايقظت كل الحي، أطلقنا الأرجل نحو مصدر الصوت الآتي من ميدان " ايزك". رأينا امرأة لم نستبين ملامحها، كانت معفرة بالتراب، منفوشة شعر الرأس كما لو كانت عفريتا تعض و تضرب على بطنها بحركات هستيرية، قلنا لابد أنها ميري وقد أتت بالخبر اليقين. سألناها من على بعدٍ فاجابت وهي تصوّت: " في المستشفى ...خلاااص ما... وووووي! "

هرعنا إلى مستشفى واو. وجدنا عنبر الباطنة ذات الرائحة الكريهة مكتظاً بالناس. كان جلياً أن عزرائيل يجول هناك ويرقص رقصته المحبوبة. رأينا شخصاً راقداً على السرير وقد غطى بدموريه وعلى راسه وقف أبونا أنريكو الإيطالي وهو يتمتم بكلمات لم نسمع منها إلا آمين[٩] بعدها أشار شخص إلى القس بأنه يريد أن يقول شيئاً[١٠] سمح له القس انريكو بذلك فجاء صوته ضعيفا مختلفا عن صوت مشنقو المبحوح الذي ألفناه قائلا: " أبونا ... أبونا برئني من الخطيئة الأصلية".

شهق أبونا انريكو طويلا وقبل أن يرد عليه رد الصوت الواهن قائلا: " يا ليتني خُلقت حيوانا لاتبرأ من الخطيئة الأصلية! " ثم سأل القس مرة أخرى بصوت أضعف: " أبونا .. ممكن اشوفو؟" " منو؟" سأل القس أنريكو. أجاب

الصوت: " ما...ما.." ثم تنهـد تنهيـدة عميقـة وصمت. رسـم القـس إشـارة الصليب وهو يتمتم بآيات من انجيل لوقا والدموع تترقرق علـى مقلتيـه. أمـر الطبيب التمرجية أن يأخذوا الجثة إلى المشرحة، قلت في نفسي لـيكن سـلام الرب معك يا مشنقو، وعقدت العزم أن القي عليـه النظـرة الأخـيرة، رفعـت الدمورية عن وجهه ففوجئت بشئ غريب، لم يكن ذلك وجه مشنقو المجعـد والملئ بالثقوب والندوب الصغيرة السوداء، لقد كان وجه مـيري عبـدالرحمن الفكي.

٭٭٭ ٭٭٭ ٭٭٭



عطـــــــــات

جاءنا في جنح ظلام الليل نافشاً عفريته، ضامراً في صدره الأعجف حقداً يشتهي حرق ذاكرتنا المهترئة ونثر رمادها في المرحاض العام عند الشارع الخلفي لمتحف الفكر القومي، كان ذلك في الشهر الأخير من عام الفوضى العظيم الذي بعثرنا على أرصفة حانات العواصم الباردة، رجل معتوه، بوجهين، مرقط العينين، مثل أحاجي الحبوبات في ليلة قمراء. كائن يدعي معرفة كل شئ "خرقاء ذات نيقة" وكثير العطس، الأمر الذي جعل الأقزام الملسوعين بهزيم الريح الجليدي في أقاصي حافة الكرة الأرضية يشكون من تساقط ذرات عطساته الفاسدة على رؤوسهم الصلعاء.

كان مفلطح الرأس، أصلعه: "أقامني الله حاكم عليكم" هكذا قال بصوتٍ صارمٍ كأنه آتٍ من جيوب خيشومه الكبير.

كانت السماء تسكب دموعها بإفراط من خطفت المنية زوجها في ليلة الدُخلة، وكنت في تلك اللحظة تداوي، إبن أخت جدتك الذي يعاني مرض إنفصام الشخصية بعد أن رمته أقدار النوستالجيا من بلاد العم سام إلى براثن القابعين على كرسي الذهب، بأعشاب جلبته شامة الكجوربة من مسافة عبور ثلاثة بحار في الركن الجنوبي من الكون. هكذا على حين غرة ألفناه

يجلس على كرسي الذهب ويمارس هوايته المفضلة في نثر قطرات مخاطه على أبنائه كما قال، ولكننا حين رأينا صلبه الأجرب المختفي تحت جلبابه القذر أقسمنا بأن مثله لا يمكن أن ينجب أفضل من فأر كنيسة أعمى.

لا تسألني عن اسمه فأنا من أولئك الذين لا يهتمون بأسماء من يحملون أكثر من وجه، لكن دعني أن أقول لك الحقيقة ولو مرة واحدة، لقد كنت أمجه إلى حد لفظ محتويات معدتي الخاوية. كان كل من يصاب بعدوى هوايته تلك يصبح مثله، أو بتعبير أكثر دقة، يصير إنساناً مخاطي التفكير، ربما لأن في عطساته جاذبية تشبه جاذبية إمرأة ما زالت تخضب شفتيها بالأحمر وتزين وجهها الأجعد بالمساحيق العصرية وهي في العقد السادس من عمرها. لكنه ولسبب لا يعلمه إلا عفريته كان يكره النساء. " النساء مجلبة للعار" هكذا قال عن طريق عطساته عندما فاق في اليوم الثالث والعشرين من شهر علاجه لمرض الجرب الذي غطى جسده المعتل، لذلك عندما إستيقظنا في صبيحة ذلك اليوم- أذكر أنك قلت لي أنه يوم قمطرير أشرقت فيه الشمس عند الأفق الغربي- سمعنا فرقعات سوط العنج في الميدان الخضر، كان هو بأنفه المعقوف يجلد بنات السادسه عشر من تساقط زخات مخاطه في فصل الربيع الذي الغاه من فصول السنة " أنه فصل الكفار" كما قال. كانت صرخاتهن مكتومة، وكانت عجيزاتهن تنبجس منها الدم، وكنا نحن الرجال- كما يقال- عن بكرة أبينا نضحك حتى غطت دموعنا أرض الميدان المقدس، لكن نظرة واحدة

من إحداهن جعلتنا نحس بفقدان شهامة الرجولة، ثم جرجرنا أذيال خيبتنا ونحن نستشعر وخزات وقاحة الكون المحتقنة في دمائنا.

كان وجهك شاحباً، حزيناً كمنتصف نهار يوم قائظ. هل تذكر ماذا قالت زميلة إبنتك عندما سألتها عن سبب جلدهن؟ إن كنت ألقيته – ذلك الكلام – في مزبلة نسيانك فأنا ما زلت أذكره: "ثكلتك أمك أي جرءٍ ترقّع؟" هكذا تفوهت بعد أن بصقت في وجهك دماً وركلتني أنا الآخر بنظرة عنيفة كأنني قصيدة مديح ركيكة داستها أحذية العسكر في مرحاض الحرس الجمهوري بالقصر الرئاسي.

لم نعلم عن سر كراهيته للنساء، لكن شامة الكجورية بعد أن إستشعرت خطورة الوضع المحدق بأنوثتها سافرت إلى الهند وجلبت ماء من أحد المعابد البوذية القديمة وقرأت مكونات ذرات عطسه بعد مزجها بالماء الهندي الموضوع في قعر قرع سنغالي جاف: " ابوه عفريت وأمه كانت شحاذة على قارعة الطرقات"، لكنه كان هنالك، جالساً على كرسيه الذهبي وينشر أفكاره عبر عطساته وسط أعوانه في القصر الرئاسي: " نعم أنت حاكمنا الأوحد" كانوا يقولون ذلك وهم يمسّدون ذقنه ويلحسون المخاط المتراكم على حثرمته قبل أن يزدرده مرة أخرى، لكن عند موته الثالث بعد بلوغه قرناً والذي هو بحساب الكرسي الذهبي لا يتعدى أكثر من عشرات سنوات لم يجرؤ أحد على إعلان موته. كانت الكنائس المغروسة في أركان القصر

الرئاسي تقرع أجراسها الصدئة نافيةً بذلك موته: " أنه لا يموت أبداً ". أما أئمة مساجد قصره المنيف الذين عينهم وفقاً لمرسومه الرابع عشر فقد جاءوا بآياتٍ غريبة ملطخة بنصوص احدى ساحرات أدغال القارة الحزينة تقول: "لا بد أن تطبق وصيتك التي أوصاك بها الرب بقتلهن جميعاً!" و هكذا تم قتل كل أنثى في أرجاء أرخبيله المترامي الأطراف بحشرهن داخل مواسير مدافع الدانات وإطلاقهن كقذائف في حربه الجهادي الكبير، أما الذين لا ديانة لهم وعلى رأسهم راهب كجوري حليق الرأس، حافي القدمين والذي كان لا يأكل إلا عسلاً ومراً بعد أربعين يوماً من حياة التقشف القاسي فقد قال: " سيدي الأوحد لقد رأينا الكائن الماورائي يعض ذيله ويطلق ساقيه للريح خوفاً منك". أما هو فكان يمشي مزهواً بقدميه المعروقتين فوق جثث النساء الملقاة في الشارع الذي مر فيه موكب جنازته المهيبة لدى موته الثاني عندما جرد كل نساء بقاع أرخبيله من أنوثتهن: "النساء شقائق الشيطان" كان ذلك هو الشعار الذي كتبه بخط يده على علم البلاد بمجرد أن تعلم فك طلاسم الحروف في عامه الأول من جلوسه على الكرسي الذهبي.

كنت مشغولا بالسؤال الذي كاد أن يفتك بأم عقلك الجافية: لماذا يكره النساء؟ إلى درجة أنك لم تكتشف بعد مقتل كل النساء أن الجانب الأنثوي الكامن داخل شخصياتنا قد طغى بصرامة على رجولتنا، لكنك لم توافقني

الرأي إلا عندما علمت من أحد اعوانه المتعطّسين أنه أصبح يرسم حواجبه بقلم الرصاص.

شعور جميل بالخزى أعتراني وأنا أسمعك تتفوه بذلك الكلام. ربما لأن شخصيتي قد إنكمشت داخل ذاتها الأنثوية، لكني ومنذ ذلك الحين وضعت سؤالك نصب عيني.

كنا نسير في موكب جنازته لموته الثامن عندما سألت شيخ هرم أشهب رفض أن يشارك في تشييعه إلى مثواه الأخير، كان يثير الغبار تجاه الموكب الجنائزي بعصبية ويبكي بحرقة قائلاً: " أبكي النسوة المقتولات وحال الرجال". كان يتحدث بلغة غريبة معكوسة تبدو وكأنها تنتمي إلى حضارة القارة المفقودة، قائلا:

— هل تعرف الأمبراطور الذي بنى سور الصين العظيم؟

— لا أعرف. قلت.

— إنه الأمبراطور شي هوانج تي. أجابني، ثم سألني مرةً أخرى قائلاً:

— هل تعرف أن هنالك علاقة تاريخية بين معتوهنا والأمبراطور العظيم؟

— ليس هنالك علاقة! قلت.

— لقد أمر معتوهنا بقتل كل النساء أما الإمبراطور فقد أمر بحرق جميع الكتب.

ثم أردف قائلاً:

— كلاهما معتوه. أراد الأمبراطور أن يمحو حقائق تاريخية بتسجيل تاريخ آخر لنفسه، أما معتوهنا الذي ولد نتيجة لقاء عابر لرجل مجهول مع أمه التي كانت ...، ربما أراد أن يلغي من الذاكرة شيئاً يحس به داخل نفسه، لكن ما لا يعلمه المعتوهين جميعاً هو أن التاريخ يكتب بأشياء أخرى لا تحرق و لا تقتل.

ركضت وراء الموكب الجنائزي. كانوا قد وصلوا المقابر. وجدت المشيعين يصفقون بشدة، كان معتوهنا هو الذي يتحدث من على كرسيه الذهبي، وكان آخر ما التقطه من عطساته هو: من اليوم فصاعداً الغيت عقوبة الجلد والأعدام للنساء".

لسبب لا أعلمه، ألفيتني أمعن النظر فيه، لقد كان هو نفسه الأشهب الذي قابلته تحت شجرة الجميز. رجعنا إلى بيوتنا ونحن فرحين بالمرسوم الرئاسي الذي أصدره من داخل نعشه، لكننا حين وصلنا إكتشفنا انه لم تكن هناك ثمة نساء .

ooo ooo ooo


الإنتظار

الانتظـــــــــار

بهو المطار الضيق الخانــق يتضوّع بعبق النوســـتالجيا المزوج بروائح ثلـوج مدن المنفى التي آوتهـــــــم بتعجرف كما لو كانوا كلاب ضـالة تقتـات بقايـا عظام بهائم جرباء في مجزرة أغرقتها الدماء الخاثرة. كانت هنـاك بجسدها المعجوف، تسبح في فضاءات عالمها غير المتراميـة، كأنهـا نجمـة تاهـت عـن مدارها فراحت تدور في فلك عشـوائي خـارج نطـاق الكـون. اكتسـت وجههـا المتعظم حمرة مصفرة فخلتهـا قـد خضـبته بمكيـاج الأفـق الغربـي في لحظـة التحام الشمس بالأرض في اليوم الخامس من شهر الإله مارس.. أعـوام بعـدد أصابع اليدين كانت حقبه البين بينهما. اقتربت من الوجوه الـتي إستقبلتها صالة المطار، التصقت بهم، بحثت عن قلبها داخل ثيـابهم جيمعـاً، الصبيان والكهـول، نبضـت كـل عضـلة مـن عضـلات قلبهـا بعنـف شـاذ، انقبضـت، إنبسطت، ارتعشت، أحست بغُصة حنظلية تسد مجرى بلعومها، نسيم عليل لفح جسدها ورفع فستانها الشفاف، الهفهاف الذي بلون دم الريم، قليلا عن مفصل الركبة.

كان الجميع يتعانقون كاالعُشاق الموؤفين وسط دغل الغابة العذراء، يضـحكون ملء أشداقهم، ويتجاذبون خيوط أحاديث مبهمة بألسنة متأفرنجة، اما هـي

فقد كانت كصخرة ملقاة في عمق المحيط لا تلوي على شئ' لكنها دونما إدراك اطلقت من منطقة لاوعيها المبعثرة في دهاليز عقلها المظلمة' صرخة كدوي رعد صعق كتلة خرسانية عند منطقة خط الاستواء... لكن اي من الآذان القرمزية لم تعرها أدنى اهتمام.

كانت الشمس قد أخذت في الإنطفاء ببطء سلحفائي وهي تذرف دموع الوداع في البر الغربي لنهر الجور الذي بدا كأنه مستلقياً على سرير الإحتضار الأبيض، وكانت الوطاويط والعصافير والزرازير تعانق أشجار المانجو والجميز' و تحمل على أجنحتها المهيضة أغصان كفتية اللون. قفل الجميع عائدون إلى منازلهم وهم يعلمون أنها ادمنت الإنتظار.. كان البعض يشفق على ما توصلت اليه من سوء الحال وكسف البال' اما البعض الآخر ممن تصلّبت شرايين ضمائرهم فقد علت شفاههم الجافة ابتسامات صفراء ساخرة.

كادت أن تفرغ ما في جعبتها من شظايا ذكريات على أرضية الصالة المتهالكة. أنها الرحلة الخامسة والعشرون القادمة من بلاد الفرنجة. جميعهم كانوا يتسكعون في أزقة تلك المدن الضبابية: حاناتها' مطامعها' ومواخيرها. مدن أثدائها مسامير. أنها نفس المدن التي فتحت قلوب أطفالنا وبصقت عليها.

شبح ما لاح من على بعدٍ. تسارعت نبضاتها. همهمت. غمغمت. جحظت عيناها. نعم انه هو بابتسامته ومشيته العرجاء. طفح في عقلها ذكرى

ذلك اليوم المشئوم، يوم أختفائه في أمسية ذلك الثلاثاء من شهر مايو عندما كانا يمُصان أنخاب الهوى ويتبادلان أقداح حُب صباهما. كانت القرية التي ترقد على الشط الشرقي للنهر تتنفس صعداء يوم مُثقل بالعمل المضني، وكانت الشمس– وهي تعانق النهر وقد خضبت وجهها بأحمر قاني وآخر كالذهب الابريز على عنق صبية طلي المناخ الإستوائي بشرتها الناعمة ببريق ابنوسي– شبيهة بفتاة عذراء تخلع دونما حياء ثوبها المُزركش عند شاطئ بحر يعج بالمصطافين في احدى الأصائل الصيفية. كانت خيوط الأدخنة الرفيعة التي تتصاعد من القُطَيات المتناثرة توحي لعابر السبيل من على بعد ميلٍ من القرية ان هناك حياة تدب وسط هذا الدغل الكثيف، وكانت النسائم الخريفية الملطفة لوجوه الرجال المتعبة تحمل الى المسامع بين تواصل وإنقطاع ترانيم الأطفال وهم يرتلون أغاني موسم حصاد عام مُترع بالمحصول الوفير والخير الغزير. بينما نبرات الصبايا اللواتي يغرفن الماء بأياديهن من النبع الصافي ويسكبنه فينساب على تضاريس أجسادهن البضة بنعومة ورقة. كانت تلك النبرات تردد بين طيات ذبذباتها صدى شبق أنثوي طاغ، مثل ذاك الذي تستشعره بنت الاربعة عشر ربيعا.

في تلك الأمسية كانت تحاول اقناعه بعدم الرحيل الى المدينة، لكنه كان قد إكتسب خلال الشهور الستة التي قضاها في المدينة من الصفات ما جعلته عنيد الرأي، صعب المراس، لا يطيق حياة الريف التي تضفي على النفس

نقاوة و صفاء. لكنه فوق هذا وذاك كان يحبها إلى حد فقدان العقل: " احبك كما احب المدينة!" هكذا قال. حاولت أن تحدق في أم عينيه وهى تسمع تلك الجملة التي بدت سمجة لأذنيها و ثقيلة على نفسها، لكن أنّى لها بالإحداق وهى التي تعلمت في مدرسة أمها التقليدية حول نار المساء، بعدم النظر إلى عيون الرجال: " انشاءالله كان راجل ميت.." هكذا نطقت شفتا أمها بالدرس الأول.

لماذا يهرب الإنسان من الراحة والهدوء والطمأنينة إلى ضجيج الآلات وتلوث عوادم السيارات وزحمة الباعة والمتسولين في المدينة؟ كانت جمجمتها تزدحم بأسئلة جمة. لقد كرهت المدينة عندما زارتها مرة واحدة فقط، حينها رأت أشياء غريبة تشيب لها الحواجب: رأت النسوة يرتدين ثيابا قصيرة تنتهي عند منتصف لحم الفخذ، أما القمصان فهى عبارة عن حاصرة للنهود تنتهي فوق الصرة بمسافة سته سنتمترات وفي ذلك إغواء لكل من تسول له نفسه في أن يزدرد لعاب شهوته دون خجل او وجل. أكثر ما أرتجت له نفسها هو منظر أولئك الشبان الذين يلوكون اللبان بطقطقات وإنتفاخات عجيبة على الشوارع كما لو كانوا بائعات اللحم الرخيص اللواتي يقفن على قارعة الطرقات ليلاً في إنتظار ما يغدقه عليهن القدر الذي القاهن في لُجة المدينة الصخابة. كان أولئك الشبان قد انحدروا إلى الدرك الأسفل من الطبائع السيئة.

بغتةَ امتلأت سماء القرية في تلك الأمسية بأشياء غريبة تنبعث منها أنوار فاقعة فاهتزت القرية تحت ارجلهما. في ثوانٍ معدوداتٍ أخذت القرية التي كانت تنام قريرة العين تشتعل كما لو كان قد صب عليها الزيت صبا واشعلت عليها كل الثقاب.. في لمحة بصر تحولت القرية إلى رماد، و إلى لا شيئ بكل ما فيها من دواب وبشر. أبت أن تخوض معه غمار المغامرة ، فتبادلا مفردات الوداع بشفتيهما.

مرت هذه الحوادث عليها سريعا وهي تراه في صالة المطار بعد عشرة سنين. نعم أنه هو بمشيته العرجاء وإبتسامته الفريدة.. تجمدت ككتلة ثلجية، أمعنت النظر في وجهه، لا لم يكن خلاسيا، ولا أصفرا، ولا بنفسجيا حين افترقا، لقد كان أسودا فاحما كأزوريس. نعم انه هو بجسده وشحمه قادم نحوها، استشعرت كلمات الوداع المطبوعة على شفتيها جميله و دافئة.. هيأت نفسها لتعانقه كما يتعانق المتأفرنجين في لحظة اللقيا.. تجاوزها.. التفتت اليه وعيناها محتقنات بالدهشة، أما هو فقد كان هناك يسرع الخُطى، متأبطاً ذراع أفرنجية شقراء تبتسم في غنج ودلال كأنها القمر في ليلة أربعتاشر.

¤¤¤ ¤¤¤ ¤¤¤


فضيحة آل ميري

فضيحة آل ميري

"كورنيلوإيتاليا...كورنيليو إيتاليا.."

أمست هذه العبارة لصيقة بلسانه يرددها تلقائياً أينما ذهب وأينما كان، تماماً كمن حفظ آيات مقدسة يرددها عن ظهر قلب منذ الصبا، فأخذ يرتلها وهو كهل، لا عن ايمان فحسب بل لأنه قد دنا من أجله المحتوم، الأمر الذي جعل الأطفال يقلدونها و يتغنون بها اكثر من الأناشيد الوطنية وأغاني موسم حصاد البافرا والبامبي والفول السوداني.

" كورنيليو إيتاليا...كورنيليو إيتاليا.."

كان ذلك في آخر يوم من شهر مارس أعتمرت سماء نهاره قبعة داكنه من السحب الكثيفة: " إت يا بتي حا تقرأ في مدرسة ناس كنيسة." إخترق أمره هذا، أُذني كصعاق رعد يشق صمت أهل القبور. الآن أصبحتَ بقايا أنثى تتقاذفها أمواج الرجال في بحر كلماتهم المعسولة، لكني وقتذاك كنت صبية تتضوّع جمالا وتنضح فيها نعومة الجنس اللطيف. هكذا كان ينطق كل نتوء من نتوءات جسدي البض. نظرات مسنونة حدتها كانوا يرشقوني بها ويصوبونها، سهاماً نحو نهودي البارزات المرتعشات كزخات مطر الصيف المتساقطة على أسطح أوراق شجر الباباي، ومآكمي التي لا تمل عنها حدقات

عيونهم: شكس توب خلاص! ليس أكثر من هذا القول الذي ملّته طبلتي السمعية وهم يمتصون أعقاب سجائر البرنجي ويفغرون أفواهم التي نسجت فيها عناكب الصعلكة شباكها. ما أدري أي صنج من صنوج البشر كانوا؟

كان صباحاً اكتوبرياً ممطراً عندما غادرنا المدينة، لم يصح ديكنا الفحل فجر ذلك اليوم، ليس لأن الصياح قد انمحى عن ذاكرته الضعيفة، لكن القدر قد منحه في ذلك الفجرمن حيث لا نعلم ولا يعلم هو، دجاجة وادي لامعة الريش إختلى بها بعيداً. قال أبي وقد شمخ بأنفه الأفطس، متكبراً، وهو ينفث دخان سيجارته ذات التبغ الرخيص في سماء الغرفة، بفوضى كلب صيد شرس: " الليله أنا ماشي نوديك مدرسة بتا سيسترات يا بتي!"

تعشمت في قرارتي أن تنشجب أوداج عنق والدي المنتفخة سيل من الدم الأسود لتغرقه في مستنقع أفكاره البالية. " يا بتي كلام ربنا كويس..." لم أعركلام والدتي أدنى اهتمام. كانت والدتي تقوم بوضع جونلتي االسوداء، وسوتياني الأحمر، وفستاني الإسموكنج الذي يكشف عن إنحناءات جسدي، وأشياء أخرى، داخل شنطة صغيرة مرقطة مصنوعة من بقايا جوالات الذرة. عقلي مخمور بأمور جمة والكومر يشق طريقه عبر أشجار البن والمهوقني والوديان الصغيرة، إلى ذلك الدير المغروس وسط أحراش الجنوب. تذكرت صويحباتي اللواتي ترعرعت معهن في حي " زاندي". فارقتهن دون أن أسكب دمعة وداع أو إبتسامة تمنح النفس أمل اللقاء: أشول دينق شول،

جاستينا خميس زمنقي، كرستينا إدوارد. تداعت إلى الذاكرة جوقة المنشدين في كاتدرائية واو يوم عيد الكريسماس وهم يرتلون وينشدون آيات من الكتاب المقدس قائلين:

" اليوم وُلد لكم مخلّص عظيم... جلوريا ...جلوريا....جلوريا..."

بعد الصلاة، ذهبنا إلى جنينة حوش القسيس وملأنا تجاويف معدتنا بثمار الباباي والمانجو واليوسفي. كشأنهم، دائما ما كانوا يطردون الأولاد. " أبونا جون دير يوريكم كلام ربُنا شويه يا بناتي.." قالها لنا والدي الذي يعمل خفيرا في جنينة حوش القسيس. على البيانو، ألفنا القس جون يعزف ترتيلة خدرت مسامعنا، حتى خلنا أن على أطراف بنانه ملائكة تضرب على مفاتيح البيانو. انفرجت أساريره عن ابتسامة غُلمة وهو ينظر إلينا، اكتسى وجه جاستينا لون أحمر قاني عندما تقابلت عيناها بعينا القس الطلياني جون. كانت جاستينا أكبرنا سناً، بنت الإثنتا عشرة صيفاً. غمز القس بطرف عينه الأهوس إيماءة لوالدي بأن يخرج: " بنات صغار ديل أنا أوز أوريهم كلام ربنا يا جوزيف." خرج والدي مهرولا وهو يقول: " أوكي فادَر" ، ثم أغلق الباب خلفه برفق.

طفق القس الطلياني جون مرسيلينو يرسل إلينا نظرات مبهمة وهو يزدرد لعاب ريقه بلأيٍ، ثم رسم إشارة صليب أمام صورة مريم العذراء المعلقة فوق البيانو: " دي برَكه من ربُنا" قال ذلك وهو يضغط بإبهامه على شفاه

صويحباتي. شعرتُ بإرتعاشة إبهامه على شفتي السفلي ورجفة يده وهو يمررها على خدي، خلسات بريئة صوبها إلى حلماتي المختبئة خلف فستاني الشفاف، دفء لذيذ سرى في عروقي كأني في حلم، ثم ضحك وشفتاه الرماديتان تهتزان حتى بانت نواجذه.

باااام بااااااام " إت مجنون يا راجل؟" أيقظني صوت أبي وبوق السيارة، كان يحدث راعي سد الطريق بماشيته. لأول مره منذ أن غادرت المنزل تنبهت إلى وجود والدي بجانبي. طريق طويل مسفلت بالتراب الأحمر، وكثير الإنحناءات كثعبان أصلة يتلوى ليهضم غزالة إبتلعها قبل ليلتين. " شوف يا بتي قسس ديل ناس مقدسين... وبعدين لازم نبعدل من أولاد كلاب ديل..." قال والدي. تغاطشته وإستغلقت عليه نوافذ مجاذبة أطراف حديثه السمج.

أشعل السائق سيجارة والقى بالعلبة الفارغة بعيدا، لا أعرف لماذا شعرتُ بأن والدي ليس أبي، بطرف عيني نظرت إلى نظارته الطبية السميكة التي تعود إلى عهد المطران الكاثوليكي أرنيو دوت، وجهه المتغضن، وعثنونه الذي وخطه بياض العمر الرذيل، كانت سحنته في تلك اللحظة، كسحنه من استعار وجه شمبانزي ملطخ بالوحل.

ظهر الدير شامخاً، فوق التل. إستقبلنا القس الإيطالي كورنيليو كوزمو ماثيو الذي كان كثير الإختلاف إلى دارنا عندما يأتي إلى مدينة واو. كثيراً سمعته

يقول وهو في غمرة نشوة السُكر: " سوف يا جوزيف يالك لازم يارفو كلام دين كويس! " ثم يرفع الكأس نصف المملوء بالعرق في ضوء القمر، فيختلط الإثنان ويصبحا واحداً: " سِنه دي مزبوت يا جوزيف! ".

بابتسامه القديسين راح يتحدث عن نظام الدير وأبي يهز رأسه بين الحين الآخر، مبدياً رضاه التام.

" ده كُرفه بتاك يا بت جوزيف" كنعش خانق الرائحة كانت الغرفة ذات السرير الواحد، المغطى بملاءة دمورية غبراء اللون، رُسِمت عليها صليب باللون الأحمر، ووسادة قذرة كصخرة صماء تعود تاريخها إلى العصر الحجري، وضعت على طاولة مصنوعة من أماليد الزان، وكتاب مقدس قديم الطبعة ومنزوع الغلاف ملقاة على كرسي الخيزران بإهمال. إمرأة بيضاء طاعنة في السن رحبت بي وقالت بلغة عربية معقوفة الأطراف: " لو أوز تستحم يا سستر في جردل تحت سرير.. ".

لم أر القس الذي إستقبلنا ألا حين حاضرنا في علم مقارنة الأديان: " يو أندرستاند سستر؟" كل لحظة كان يسألني، ونفس إبتسامة الأمس مدموغة على شفتيه. كان يتردد إلى غرفتي بعد أن يستفيق من غفوة القيلولة التي تباغته على مائدة طعام الغداء، وعند الأصيل ساعة قرع نواقيس الكاتدرائية، ليفسّر لي بعض الآيات التي إستعصت على فهمها، كان يربت على كتفي في

نهاية كل تفسير وهو يقول، مرتاح الأسارير: " كلام دين مافي زيو في دُنيا كلو! "

شهران قضيتهما في حشو عقلي بالدراسات اللاهوتية والفلسفة وعلم الإجتماع دون أن يزرني أحد من الأهل. كنا (زميلاتي وأنا) نستيقظ من النوم للصلاة عند بزوغ الفجر حين تمتزج قرقعة نواقيس الدير بأصوات الوطاويط التي لا تكف عن العويل إلا عندما تبدأ الشمس في الإرتفاع عند الأفق الشرقي. كان لتمسيد القس كورنيليو كوزمو ماثيو لعنقي، مذاق مختلف في ذلك الأصيل، ربما لأنه قد عانقني وضمني إليه بشدة. " سستر مسيح بقول حبو بعضكم تعضا" قال. تشبثت بجلبابه، داعبت لهاث أنفاسه الساخنه حثرمتي، زمهرير برد سرى في كل خلايا جسدي، لا أدري ماذا حدث بعد ذلك، لكني استقظت متأخرة في اليوم التالي، فاتر ومصفد البدن كعروس في صبح ليلة الزفاف.

مرت الشهور كسولة وبطيئة، أمسيت لا أطيق رؤية تلك الإيطالية البيضاء، تفتحت شهيّتي في الأكل فأصبحت آكل ثمار المانجو النيئة وطين البحر الجاف، إلى أن جاء والدي وأخذني في الإجازة السنوية. على طول الطريق كان يحدثني عن صويحباتي: أشول دينق شول في بيتو، جاستينا إرس بتاو شهر تمانيه... لم أبد رغبة في التحدث اليه، فقد كانت رائحة البنزين تخنقني وتكاد تلفظ بكل محتويات معدتي، إقتربنا من المنزل، إشتقت إلى

نظرات الشباب. كان الدارمكتظ بالأهل، عانقتني الوالدة طويلا، إمتزجت دموعي بدموعها، كانت ترمق بطني بين الحين والآخر. " يا بتي ات أكلت من صباح سحي؟" سألت والدتي وهي تمرر يدها علي بطني.

مر أسبوع ومعاملات والداي نحوي تبدلت ، كنت أسمع إسمي خلال أحاديثهم المسائية لكنهم سرعان ما يحوّلون مجرى الحديث عندما أقترب منهم، إلى أن جاء يوم الثلاثاء المشئوم حين ذهبنا، والداي وانا، إلى عيادة دكتور فرانسيس كاميلو. لم أعرف لماذا كان يكشف علي رغم العافية التي اتمتع بها: " أربعة شهور يا جوزيف..." قالها دكتور فرانسيس كاميلو لأبي، وعلى حين غرة رأيت عينا أبي وقد جحظتا خلف نظارته الطبية السميكة، ثم أطلق زفرة ألم عميقة شبيهة بزفرة فيل يشكو من ضفدعة تنق في خرطومه. لطمه قوية هوت على خدي بغتة: " دي جنه حرام ياتو امل حاجه دي؟"، ما هى إلا لحظات حتى فقدت الرؤية كما لو كان كل ظلام الغابات الإستوائية قد حقن في عيني. أما والدتي فقد انتحت ركناً قصياً وهى تنتحب. " قول لي ده منو؟" بصوت كدوي مدفع سألني أبي.

" عمل شنو يا بابا؟" سألته. قال ورشاش لعابه يتناثر في الهواء: " تسألني كمان...تسألني؟" ثم خرج مسرعا، أمسكت الوالدة بيدي وتبعناه، في الطريق سألتني، لكن في حقيقة الأمر لم اكن أعرف عن ماذا كانا يتحدثان؟ " في شنو يا ماما؟" سألت.

صمتت فترة طويلة، تعثرت قدمها اليسرى على حجر: " مش أنا دقيت كوريني زي دي في حاجة ما كويس جاي يا يحصل!"، بالحاح شديد أعدت السؤال مرة أخرى، بمرارة وتلعثما حنظليا جاء ردها: " يا بتي ات حامل." تقافزت إلى ذهني صورة القس الطلياني كورنيليو كوزمو ماثيو وهو يمسدني بيده اليمنى وممسكاً بيسراه الكتاب المقدس. ألآن فقط علمت لماذا إستيقظت متأخرة في ذلك الصباح فاتر البدن كعروس في صبحيتها. كل ذلك رويته لوالدتي ونحن في الطريق إلى المنزل، وصلنا الدار، تهالك أبي جالساً هناك على كرسي المعاش، ديز إز لندن، هكذا كانت تقول ذبذبات الراديو الموضوع على ترابيزة صغيرة بجانبه. كان والدي قد أدمن الإستماع إلى تلك الأذاعة رغم عدم إلمامه بلغة أولاد جون: هاو أر يو؟ آيام أوكي..! ولا أكثر. على (بمبر) جلست والدتي مسافه منه، وبصوت متحشرج ورأس منكس قالت والدتي بعد أن عدلت في جلستها مراراً وهمهمت تكراراً: " أبو ميري ...أبو ميري.. دي أبونا كورنيليو ياهو عمل حاجه دي.."

كجاموس ملدوغ إنتفض والدي وهرع إلى الكوخ، ثم خرج مسرعاً وقد إمتشق " نشابا" و"فرارا" وعصا غليظا، وإجتاز الباب المؤدي إلى الشارع.

" ات ماشي وين يا أبو ميري؟...في شنو؟ في شنو؟." كان ذلك صوت جيمس صديق والدي.

" زفت ده أنا لازم أكتلو يا جيمس..لازم"

" منو يا أبو ميري؟ منو؟"

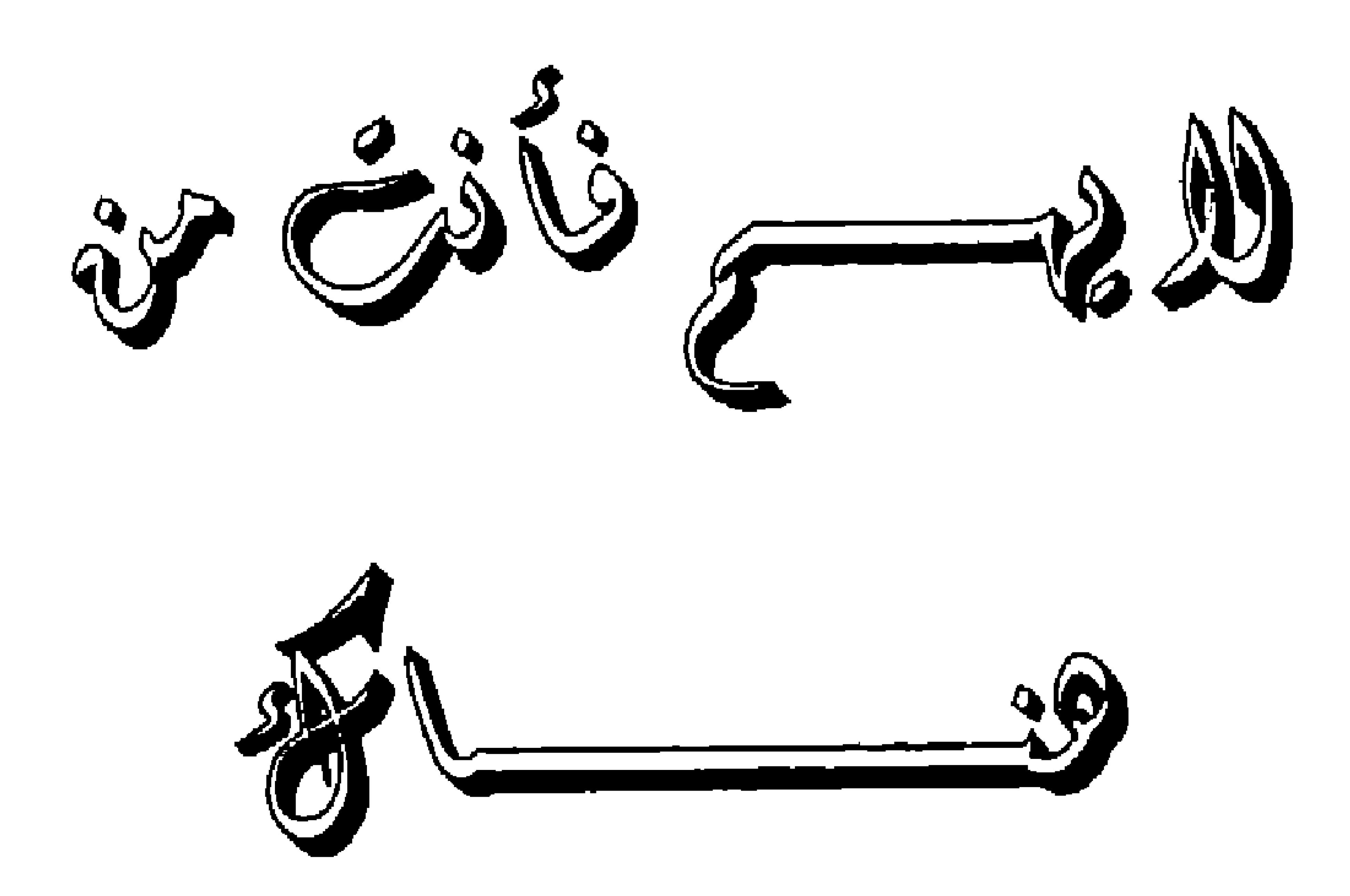
" أبونا كورنيليو يا جيمس..أبونا كورنيليو"

قال أبي ذلك وفحيح لهاث أنفاسه تسبق كلماته، لم يلح جيمس في معرفة ما حدث، لكنه إكتفى بتهدئته، وبعد أن تباطأت سرعة أنفاسه وإرتخت شرايين عنقه المنتفخة، قال له جيمس بصوت خافت:

" لكن يا أبو ميري أبونا كورنيليو ما نقلو إيتاليا وسافر امبارح.."

منذ تلك اللحظة المشئومة لم يعد والدي إلى المنزل، ولكنه كان هناك في " سوق حجر" و " سوق جو" يركض دون توقف، وقد أمست العبارة لصيقة بلسانه، يرددها تلقائياً والأطفال يرددون خلفه: " كورنيليو إيتاليا....كورنيليو إيتاليا.."

*** *** ***



لا يهم فأنت من هناك

قد يكون حظك كحظ الذين كانوا يضحكون على النبي نوح عندما كان يبني فلكا قبل الطوفان الإلهي العتيق، أو كحظ " أومودو دونقو أوكيلو" الذي أعدم رميا بثلاثة وثلاثون سهما مسموما لأنه أكل- عن طريق سحره الذي جلبه من غرب أفريقيا- قلب ابنة جاره " أسحق الفوراوي"، تماما كما تنبأت عرافة " جبل خير" التي أسلمت الروح قبل ثلاث عشرة شهرا أثيوبيا من عيد ميلادها المائة. و قد تسبر أغوار عالمك الكجوري و تغوص في بحيرة أحلامك الآسنة شابا أفريقيا شكسبيري الطراز يرتدي زى من العصر الفيكتوري ويمشي الهوينى في بهو " التن داوننج ستريت"، ربما أستقبلك عامل النظافة وسط جوقة من كورال الكنيسة الانجيلكانية في شارع " جوموكينياتا" فاعتقدته ألقس " جورج كيري"، أو ربما استجبت لدعوة عابرة أفريقية بنفسجي الوجه لتناول عشاء في مطعم " البيكاديلي".

أطلقت ساقيك لريح الجليد بعد أن أطلق الحفيد الخامس ل" فان جوخ" كلاب حراسته لتتصيدك لأنك لا تستحق اللجوء السياسي.

في شارع فلاحي الملح، لا أعلم فلاح صعيدي ينحدر من صلب "رمسيس" أم فلاح قدم من منطقة بحر الجبل متطوعا في حرب الأيام الستة. لا يهم فأنت

من هناك، من مدينة جنوبية الرائحة. أذهب، فهنـاك سـتجد المكتـب الـذي سمعت عنه كثيرا، بداخله أناس صفر الوجوه لا يطيقونك. أنت لاجئ سمج. هل لديك أطفال؟ كنت اعلم انك أب لأربعـة شـبان حتـى أواخـر عـام ١٩٩٤. لكني بعـد كـثير عنـاء علمت أن الشبان الأربعـة هـم أبنـاء شـقيق " كليتـو جوزيف أبو شكه" الذي راح ضحية مجـزرة ليلـة العـرس في منـزل بجـوار محكمة نمرة ٣. كان ذلك في عام ١٩٦٥.

أنت أب أو أم هذا لا يهم، المهم هو أن تـذهب إلى هنـاك. فهـؤلاء القرفصين داخل الغرف المكندشة، والـذين بلـغ رزقهـم علـى المعـذبين في الأرض مبلـغ السيل الزبى سيجعلون طفلـك، الـذي وضـعته في رصيف أحـدي السـفارات، يتيما غير مفطوما.

نعم لقد مت في اليوم المحدد والساعة المحددة والـدقائق الـتي بعـدد حـروف اللعنة: "ريجيكشن" وحين نطـق بهـذه الكلمـة كانـت روحـك قـد غـادرت جسدك. ما أثقل جثث اللاجـئين ! كانـت جثتـك عـبء ثقـيلا علـى كاهلنـا. الكنيسة: "ما فيش فلوس" قال القس. شهر من الـزمن الأجـرب ظـل جسـدك مسجى داخل ثلاجة المشرحة. " عاوزين تشوفوه؟" سأل عامل المشرحة الـذي كان يأكل طعام غداءه ورائحة الجثث تملا المكان. " ماشي هات حلاوة" بصـق الحانوتي على وجوهنا، و قد كان على حق فلـم نكـن نملـك حفنـة جنيهـات لنشتري بها الكفن.

هناك خلف الترابيزة، في المكتب الأنيق، في شارع فلاحي الملمح، امرأة بدينة تدخن سيجارة نظيفة تنفثها بعنجهية في سماء الغرفة. هكذا كانت تدخن جدتك "تنباك الكتكر" بشراهة عندما قالت لك، وهي تمارس شعائر شعوذتها المقدسة تحت شجرة الجميز عند ضفاف نهر الجور، إن رحلتك ستتوقف عند المنطقة التي تعقر فيها طمي النيل وتفقد أنوثتها الطاغية. سألتك البدينة بعد أن أشعلت السيجارة الثالثة: " عندك أيه مشكلة سياسية ؟" فجأة تذكرت غرفة تطل على ال"سيتي بنك". منع الاغتسال، الطيارة قامت، الحرمان من التبول وقضاء الحاجة الطبيعية.

ضحكت وقالت: " دي ما مشكلة سياسية"، ثم أشعلت مارلبورتها السادسة. كانت هيئتها تنطبق عليها النظرية الداروينية. " عندك علاقة بالحركة الشعبية" سألتك. تقافزت إلى ذهنك كل الأشياء الشعبية. اللجنة الشعبية التي لم توزع السكر منذ ثلاث سنين، الشرطة الشعبية، الإعدامات الشعبية الجهادية كأقصر الطرق إلى دخول الجنة. ضحكت الموظفة حتى ارتجت فرائصها سبعة درجات بمقياس الأمم المتحدة. قلت الكثير: كنت أجبر على تقليد نقيق الضفادع، نهيق الحمير. ستة أشهر منعت من أداء فريضة الصلاة.

في تلك الليلة، في مقر اللجنة القومية للانتخابات، رأيت فيما يرى النائم – نعم أنت وحدك رأيت ذلك، أما أنا فقد أعدمت قبل ذلك بستة أشهر في

مزرعة بسوبا– الملك جبرائيل، هزيلا يصلي من أجلكم جميعا، حتى من أجل الذين كانوا يشرفون على تعذيبك: " عصفور" " جكس"، بدران"، لم يعلم الملك جبرائيل أنها أسماء حركية: " يا أبتاه أغفر لهم لأنهم لا يعرفون ما يفعلون" قال ذلك و اختفى كسحابة صيف في الثالث من شهر مارس.

تورد جبينك عندما نزعت الموظفة قميصك و سكبت دمعة على الطفاية. شيء واحد لم تذكره، لو ذكرته لانتفضت الموظفة والهيئات الدينية ونقابات بيع وشراء الكلى، لكنها لا تتعدى أن تكون زوبعة سكر على قعر الفنجان.

وأنت متجه إلى الشارع نفسه، في الأوتوبيس، داهمتك أحلاما جميلة: أمريكا؟ لا في جرائم كتير. كندا؟ أيوه، لكن بس كلام البرد ما صعب. استراليا؟ أووه ده ما توب يا جيك!". نطق الموظف الدولي أسمك عاليا، الكل كان ينظر إليك وأنت تشق عباب الزحمة مخترقا الأحلام الوردية التي تعشش في أدمغتهم. نفض الظرف. أكثر من مائتين بؤبؤ عين مركزة على الورقة التي بين يديك. اختلطت الحروف عندك. تقلب الجواب رأسا على عقب، أو على قفاه، تبحث عن نظارتك الطبية في أركان جيوبك المثقوبة. في آخر لحظة تتذكر أن الشيخ "حسن" إمام مسجد القيادة العامة بالخرطوم والذي كان يشرف على تعذيبكم في سوبا قد داسها برجله.

— مبروك يا...

— عقبال الريستلمنت

ابتسامات "الهجرة إلى الشمال" ارتسمت على شفاه أطفالك." مشروع حضاري

دا كلام فاضي وخمج" عفويا خرج هذا الكلام من فمك.

كنت تشخر شخير من سهر ليلتين دون أن يغمض له جفن.

— سيبوه يا جماعة والله تعبان.

لكنه كان قد أتى و أنت ممسكا بورقة الكشف الطبي بكلتا يداك. حينه نطق

منفعلا فجاء صوته مشروخا:

— يا أبو الشباب صح النوم.

فتحت عينيك بفتور واضح وقبضة يدك اليمنى تحاول أن تمنع هواء التثاؤب

من الانتشار في أرجاء المكان. غالبك النعاس مرة أخرى.

— يا شاب أنت ما عاوز تدفع ولا شنو؟

كانت بلهجة أكثر حدة هذه المرة، عدت إلى وعيك، نظرت إلى يديك، لم تكن

هنالك ورقة الكشف الطبي.

— يا جماعة الكشف الطبي ورقة الكشف الطبي يا جماعة.

صرخت عاليا، ضحك الجميع، ألقيت نظرة سريعة عبر الشباك، كان النيل

الأزرق هادئا والبص ما زال في وسط كبري بري يمشي كسلحفاة في الشهر

الثالث من عمرها.

*** *** ***

مدام نلسبنا

مدام نتلسينا

— كُبي نص يا مدام

كانت صالة الاستقبال التي امتلأت برائحة سجائر الكليوباترا والعرق تعج بتلك الكتل البشرية السمراء التي نزحت بفعل الحرب من أقصى جنوب البلاد ليستقر بهم المقام في شمال الوادي. صالة الاستقبال كانت بحق أقذر صالة رأيتها في حياتي المليئة بالمغامرات واتقان السبل الملتوية... توسطت الصالة ترابيزة خشبية صغيرة و ضعت تحتها قوارير وترابيزة أخرى بالقرب من الثلاجة وضع عليها تلفزيون ملون و بجانبه مخدة ممزقة قذرة لم تستعمل منذ أن تقيأ فيها أحد الزبائن والمشهور ب "نمرة عشرة" في ذلك السبت من شهر مارس بعد أن قبض الجنيهات العشرة التي تمنحها الكنيسة في أول يوم سبت من كل شهر على أنها هبة، حتى " نمرة عشرة" نفسه استبدت به السخرية فأطلق على هذه الهبة " الهولي إسبريت".
بجوار المخدة كانت هناك شنطة جلدية بنية من النوع الذي يستخدمه تجار الكوتات.

تكاثف دخان السجائر في الجو حتي يخال المرء أن الغرفة نفسها تنفث من حيطانها، التي تغيرت بفعل البصق، دخانا كثيفا .

أعقاب سجائر بيضاء و أخرى سوداء أسودت من كثرة الأرجل التي تدوسها، متناثرة في كل مكان حتى الحمام. ولك يا صديقي أن تتخيل شكل الحمام ورائحته المنعشة في هذا الجو الساهر الجميل.

— ما تكُبي نُص يا مدام.

قال ذلك بنرفزة وهو يخلع جواربه التي امتلأت بالثقوب و تآكلت خيوطها فاهترأت. كانت تلك جوراب باليه أشتراها قبل عامين عندما ألحّت عليه زوجه وقالت: " والله عيب تمشي معاي حفل عرس ده وأنت لابس جزمه من غير شراب. انت عايز نسوان بخيتة يقولوا فيني شنو؟".

— يا مدام ما عاوزه تكبي الزفت ده ولا شنو؟

لم تعبأ مدام نتلينا بأوامره، خاصة أنها عرفت بأنه عاد إلى ذلك سرا. فهو عندما يشرب يقوم بطرد الزبائن وضرب امرأته وهو يقول: " هو نمرة عشرة ده ليه بيمشي وراك على طول.. عندك معاهو شنو؟. وثم تانيا اليقعدك في غرفة الإستقبال شنو؟".

مدام نتلينا كثيرا ما ضاقت به ذرعا وتتحمله رغما عن أنفها و هي تقول: " والله لو مش عشان العيال البينتنا ما كنت بعيش معاك دقيقة واحدة".

مدام نتلينا تجتهد ليلا ونهارا لتقوم بدفع المصاريف الدراسية لأبنائها الستة، أضف إلى ذلك إيجار الشقة و مصاريف البيت. أما صاحبنا فهو من النوع ألاتكالي المفرط في الاتكالية كأنه خلق ليصبح عبئا ثقيلا على عاتق أنثى

ضعيفة رمتها الأقدار في براثن رجل لا هم له، مما جعل مدام نتلينا تقول له في يوم من الأيام والصالة اكتظت بالزبائن: منهم الجامعي وطالب الثانوي، ومنهم من يعمل بتجارة الأعشاب على الأرصفة. " وبعدين انت زوجتني بكم؟ قولو كدي قولو قدام إخوانك رجال..!" ثم مممصت شفتيها و استطردت قائلة: " وانت قايل أي واحد بيلبس بنطلون راجل؟؟"، حتى أصبح ذلك القول على كل لسان إلى درجة أن بعض الزبائن عندما كانوا يرونه في حوش الكنيسة تجدهم يرددون ذلك القول باختصاره ليصبح أكثر وقعا على صاحبنا بقولهم: " كل واحد يلبس بنطلون..." و بعده يضحكون ضحكات ساخرة تجعل صاحبنا صغيرا أمامهم.

أغتاظ عندما أسمعته مدام نتلينا ذلك الكلام المحرج أمام الزبائن الذين كادوا أن ينفجروا من الضحك، فانهال عليها ضربا بالترابيزة، فتدحرجت القوارير وانسكبت السوائل وساد الحرج و المرج. المدام تنقل إلى المستشفى في الواحدة والنصف صباحا وهي في حالة إغماء. كسر مركب في الذراع الأيسر. بعد شهرين من ذلك الحدث عادت مدام نتلينا إلى بيتها بعد أن أقسم صاحبنا أمام أهلها أنه لن يضربها مرة أخرى. ثم أضاف وهو يفرك يدا بيد والعرق يسيل منه: " وكمان أنا ما بشك فيها وفي الضيوف".

تخلى صاحبنا عن عادته نهائيا في ذلك اليوم وأصبح محترما غاية الاحترام حتى مدام نتلينا أخذت تتباهى وتتباخر به أمام نساء جمعية "بخيتة"

قائلة: " والله راجل بتاعي ده بقى محترم كيف..لدرجة انو بيخجل يعاين في عيني.."

حقا أنه لسبت عجيب حين صاح بأعلى صوته وهو يترنح قائلا" " كبي يا...."، في ذلك اليوم علمت نتلينا , وأبصمت بالعشرة أن صاحبنا قد إلى عادته بثقله. خاصة أنها قبل ذلك اليوم سمعت من أحدى النسوة بذلك: " ده يوميا بالبارد كده بيشرب قزازه في بيت ناس خميسه..!" قالتها وهي تضفر شعر مدام نتلينا والفستان ألبمبي قد أنحسر عن ركبتيها. حينها علمت المدام بحدس الخبيرة أن مسلسل الإحداث والبلاوي سيتكرر مرة أخرى، لذا لم تنبس ببنت شفة. تظاهرت بمشاهدة المسلسل التلفيزيوني "دانجروس وومن".

" كويس البيت ده بقى ما فيهو احترام مش؟" قال ذلك وهو يحمل جزمته متجها نحو غرفته، في طريقه إلى الغرفة سمع صوتا يقول:" خليك منو ابوي ده زول سكرجي ساكت"..!". أتجه نحو مصدر الصوت، فتأكد أنه صوت أبنته. ولج الغرفة دون أن يحس به أحد، أضاء نور الغرفة. رأى أبنته و"نمرة عشرة" ملتصقان، تسمر في مكانه برهة، لم يستوعب هذا المنظر، صاح بأعلى صوته قائلا:" يا مدام في شنو بيحصل في البيت ده؟ في شنو؟".

جاءه صوت مدام نتلينا واهنا: " ما ياهو أنا كبيتو يا أبو عيالي..!".

*** *** ***

وكرهتُ أنّي رجلاً

وكرهتُ أني رجلاً

الشوارع خالية إلا من بعض الكلاب التي تضاجع بعضها دون حياء، وكنت أنا أصارع كميات الخمر التي تسري في عروقي كأنها مادة الحياة التي تجعلني أغوص في ذاتي وأجهل الحياة نفسها...تعثرت، ووطأت قدمي زيل صديقي فنبح في وجهي كأني زائر ليل. الكتاب يعشقون الخمر والنساء والكلاب، قال لي صديقي الشاعر الذي انتحر لأن حكومة عسكرية ما منعت كتاباً من النشر. لكنه، أي الكلب، تعرف عليّ ولعق مؤخرة حذائي المثقل بالطين و البول والبراز، ،شغفهم بالطبيعة يجعلهم دائماً يقضون حاجاتهم في أطراف المدينة، بالقرب من بيت الموتى، هكذا كان جدي يسمي المقابر. زر كل البيوت إلا هذا البيت المشؤم، كان يتغنى جدي عندما يغيب في عالم السُكر، ثم يروح في مشادة وهمية مع الله واضعاً إياه في قفص الاتهام، ثم يزرع الغرفة الكئيبة بمشيته الشاذة وهو يكيل عليه الأسئلة كأنه محامٍ وهو يقول: السكوت علامة الرضا، فأنت معترف بكل آثامك لأنك خلقت بني الإنسان الذي يتعذب كل يوم وأنت لا تظهر أيه نية في إيقاف الإبادات الجماعية التي تحدث في الركن الغربي. إما أنك تستمتع بهذا العذاب وتلك قمة الوحشية، أو أنك لا تستطع إيقافه فهذا هو العجز بعينه. حكمت

المحكمة عليك بالشنق لتتذوق طعم الموت، على أن يتولى الإبليس أمور الإنسان إلى حين إشعار آخر!

عبرت ميدان باشا سريعاً حين رأيتهم واقفين بالقرب من الجامع كأنهم اشباح، متلفعين بثيابهم الشتوي الأسود الثقيل، وهم يسحبون بسعادة، زائفة، نيكوتين تلك السيجارة الرخيصة ذات النكهة النتنة لقد كانت تلك هي السيجارة الوحيدة التي تستطيع تدخينها وأنت جائع. كانوا مكدسين داخل سيارة بيجو زرقاء اللون: أبو سمره عندك سيجارة. فاجأني الجندي الذي كان واقفاً كأبوالهول، حزيناً كأنه تلقى خبر أليم لتوه.

كان ذلك قبل ساعة أو أكثر عندما غادرت الحانة خلسةً لأنني لم أتمكن من دفع فاتورة زجاجات البيرة الثلاثة و كأس الويسكي الذي ختمت به تلك الزجاجات كأنني أمارس طقس روحاني في تطهير الذات من آثام النهار المثقلة... غادرت الحانة سراً من الباب الخلفي بعد أن أخفقت في إفراغ مثانتي التي أصبحت كبالونه إرصاد ترصد حالة الطقس داخل بنطالي القذر، بالونه أوشكت على الانفجار كمفاعل بولي، و كانت المبولة الوحيدة داخل ذلك المرحاض النتن مشغول جداً حين ولجته وقد أفزعتني نتانة البول والمنظر وكادت أن تلقي بي في متاهة الوعي، كان هو هناك منحنيا، رأسه إلى أسفل، مفرداً رجلاه كأنه بقرة تعاني آلام مخاض، وممسكاً بعمود المبولة بينما صاحب الحانة يدخله من الخلف بعنف، وقد بدت فتحة مؤخرته

الضعيفة المشعرة تنقبض وتنفرج بسرعة، بينما صوت أنفاسه تتلاحق كأنه يهرول في ماراثون أو يسابق شبح ما. تسمرت في مكاني هنيهة وأنا أتأمل هذا المنظر القبيح المثير بعد أن توقفت أنا و الزمن برهةً. كان صاحبنا يئن ويقسم بأغلظ الإيمان بأنه لم ولن يتذوق الخمر مرة أخرى حتى لا يتعرض لمثل هذه المهانة، هكذا دائماً ما كان يقول وهكذا دائماً ما كان يعرض نفسه لهذا الموقف. و قبل أن يفرغ تلك المادة الحياتية في أحشائه كنت أنا قد دلفت، وبهدوء اللص، إلى الخارج وغصت في سكون الليل.

في الشارع، لم يكن هنالك إنسان في تلك الساعة المتأخرة، كنت أنا والليل صنوان، فالليل يمنحني مساحتي، خصوصيتي، والشعور بالذات، فهو لا يكشفني و لا يفضحني مثل ضوء النهار. ظلام الليل يجعلني أتأمل النجيمات المتلألئة في عنق السماء المشرئب إلى الأسفل. الظلام يمنحني مساحة للتأمل أكثر مما يمنحني ضوء النهار، لأنه وببساطة ظل العالم كله، وما الظل إلا الجزء الآخر لي والذي يشعرني بإنسانيتي.

منحته سيجارة ثم أشعلتها له، إنعكس ضوء لهب الولاعة على وجهه فرأيته مثخناً بالحزن كأنه مخزن لكل أتراح العالم. سحب أنفاس عميقة سريعة قبل أن يمطرني بوابل من تعبيرات الإمتنان. "لا يهمك يا دفعة" نطقت بذلك وأنا أبتعد عنه كمن ينأى بنفسه من شرٍ لا بد منه. أبتلعني شارع سعيد ذو الفقار فشعرت بالأمان، لا أعلم هل حفظت انا الشارع عن

ظهر قلب أم الشارع حفظني أنا؟ هنا على يميني تقبع القِصَابة التي أشتري منها العظام وأرجل البقرة والكبد المجمدة التي تتهتك مجرد طبخها. اشعلت لنفسي سيجارة فسعلت رئتاي بعنف وأخرجت قشاعة تفوح منها رائحة الدم. التدخين يجعلنا عبيداً أليس كذلك؟ كانت عقيلتي تمج رائحة النيكوتين فرمتني على قارعة الطريق. أما الثانية فقد كانت تدخن كعادم سيارة قديمة.

دخلت العمارة وأنا أتحسس طريقي نحو السلم، فقد أمسى الظلام أكثر سواداً. لمحت عم عبده عبر نار سيجارته وهو جالس على ما يبدو في ركن قصي من غرفته التي تقع مباشرةً تحت بئر السلم. كانت الغرفة مكدسة بتسع أنفس يعلم الله كيف كانوا يعيشون كبقية البشر. البواب عم عبده هو الفقر بعينه ولكنه كان أسعد خلق الله. من اقتنع بحالته كثر سعادته، فلسفة عميقة ورثها عم عبده من والده –رحمه الله عليه– الذي امتهن مهنة البوابة لثلاثة عقود.

وصلت إلى الدور الخامس. كانت هنالك ضحكات متقطعة تقع على مسامعي بين الحين الآخر، وكانت هناك قطة كئيبة جالسة على حافة أحدى المنافذ كأنها تتأمل حلكة الليل، أو ربما تحلم هي الأخرى بوقت للبوح والحب والأنس الجميل. توقفت برهةً. تأملت عيناها المضيئتان كنهدان مطليتان بأشعة شمس الصيف على شاطئ ما، أو كنجمتان تتلمسان مسارهما في جوف

الكـون. في الظـلام بحثـت عـن المفتـاح في ثنايـا جيـوبي ولكـن دون جـدوى وتذكرت أنها قد أخذته حـين رمـتني بعيـداً عـن حياتهـا، فكـان لا بـد مـن طرقات خفيفة على الباب حتى لا أزعج جاري الـذي حـذرني ذات مـرة وقـد خرج ذات مرة بجثته البدينة و هو يلعن اليوم الذي جعله جاري. كان بطنـه المترهل يرتج باستمرار ويغطـي جـزء كـبير مـن سـرواله الـذي بـدا كخيمـة وسخة وهو يكيل لي بأقذع ما يحتويه قاموسه من الوان الشتم والسباب. كـان يدخن بشراهة و يحمل في يده كرتونـة زرقـاء عرفـت فيمـا بعـد أنهـا علبـة المقويات الجنسية، وبعد أن تنفس صعداء غضبه وداس برجلـه اليمنـى علـى عقب السيجارة استدار عائداً أدراجه إلى الشـقة وصـفق البـاب خلفـه بغضـب شديد. لم يفت خمسة أو قل عشرة دقائق حتى سمعـت إمـرأة تصـرخ صـراخاً عاليا، صراخ يعلو ويهبط و يتخلله كلمات وشتم و ضحك ثـم صـراخ وتلاحـق أنفاس. وفجأة اعلن الليل عن نبأ إرتطام شئ على البلاط، ثـم صـمت و ضـحك وجرجرة ارجـل و إنفتـاح صـنبور مـاء في الحمـام، و صـوت إغتسـال. هكـذا يمارسون ال... أليس كذلك؟

تذكرت محبوبتي التي طال إنتظارها لي وهي قابعـة في تلـك الشـقة الكئيبـة لاتذوق عسل مملكتها. فآنى لـي ذلـك وأنـا مـن أمسـى بـلا كرامـة وفقـدت في لحظة ضعف، وساعة جبن معنى أن يكون المرء شهماً يحمـى معشـوقته الـتي لم يراها إلا في كوابيس حلم منفاه تحت الخيّم التي تكاد تحترق بفعل أنفاس

اللاجئين. قابلتها حين داهمتنا الشرطة المصرية في ميدان مصطفى محمود متهمة أيانا بتلطيخ سمعة الفرعون الأكبر في أروقة الأمم المتحدة. كانت تهذي طوال الليل وهي تنادي على إبنها التي داستها أحذية العسكر، وهل هنالك ماهو أقذر وأثقل في العالم من حذاء الجندي؟

آه يا مصر، أه يا فرعون. لماذا؟

ولجت الشقة خلسةً وألفتها قابعة في الكرسي الوحيد الذي إشتريته من بائع الروبابكيه. أدركت بحدس زير النساء أن جمالها الماثل أمامي هو مصدر شقاءها وبؤسها وتشردها و لجوءها إلى ممارسة....جمال فقد مغزاه يوم أن إستلب جندالله عذريتها على مرآي من الجميع، وأرغمت على ممارسة الرزيلة معهم.

خاطبتها بعد أن رأيت في مقلتيها ينبوع دموع تكاد أن ينفجر قائلاً: أحكي، أحكي لي ولا تخافي.

"نعم لم يقتصر الأمر علينا نحن النساء، ولم يقتصر على أبنائنا الذين ضاجعهم الجن على ظهر جواد لقتل الكرامة وتدمير الشرف، و...، بل طال الأمر شيوخنا ورجالنا وأطفالنا"

خجلت. انكمشت. غصت في نفسي. وتعشمت أن لا تواصل روايتها التي تكشف قذارتي كرجل. لكنها كانت مستمرة، كأن وجودي غير ذات أهمية.

"ايه دارفورية حلال على جند الله" بيان أصدره القصر الجمهوري على لسان زعيمهم هلال.

"مضاجعة أطفال الكفار ليس بحرام" نعم أفتى الشيخ بعد أن توضأ بدم طفل.

آه يا جنجويد، أه يا سودان. لماذا؟

"لماذا أنت في حيرة من أمرك" سألتني. ثم أردفت قائلة هذه حقائق يعرفها كل العالم، ورغم ذلك لم يعبأ العالم بذلك وليس ذلك بغريب، ليس في ذلك ريب، لقد أمر الرئيس، وأفقه القائد الأعلى، وأفتى الشيخ والأمام معاً. ومن يجرؤ على مخالفة الإمام فقد ألحد، ولا حسد عليه إن رماه الله بثالثة الأثافي.

أخذ ظلام الليل يتقهقر تدريجياً أمام زحف ضوء الساعات الأولى من الصباح، بينما مؤذن الجامع الذي يقع في الشارع الخلفي المؤدي إلى سينما فاتن حمامة يعلن عن صلاة الفجر. وكنت أستمع إلى صديقتي وقد نفد غضبي و جفت دموعي وهي تقول:

"كقدر، كزلزال، كطوفان إقتحموا القرية. كانت السماء تبرق، وكانت الأرض تتحرك، تملكنا الجهل حين ظننا أنه يوم المهرجان العظيم. دعاهم العمدة ذلك الشيخ السبعيني إلى داره، ثم آواهم وأطعمهم. لكنهم آثروا أن لا يضيعوا وقتهم في كفر، في هرطقة، كما أفتوا. فدمه، دم ذلك الشيخ الذي بدا وكأنه الدهر نفسه، غير عربي، وهذا جرم يستحق قطع الرقاب، وإزالة الحجاب والنقاب عن النساء لإستحلال الإغتصاب. طلقة. طلقتان. ثلاثة

طلقات. وماذا يهم إن جاءك الموت على سرج سابح أو على فوهة سلاح؟ نعم كانت جثته هناك وسط السوق بعد أن قيدوه وشوّهوه ببتر عضوه وحشره في فيه وجروه عبر أزقة القرية عبرة لكل من تسول له نفسه وتجرأ على رفع السلاح في وجه تلك الغانية المعتلية عرش السلطة لعقدين من الزمان. كان الحصان كئيباً كأنه يجر عربة محملة ببضائع قديمة فقدت صلاحيتها وتعبت من حملها أرفف المحلات. وماذا يهم إن كان سبعيني أو صبي أو... لا بد من تطهير، ولا بد من محرقة، ولا بد من إبادة. أما العالم فقد أمسى محتاراً وهو يلعق مؤخرته بين أن يسميها إبادة أو تطهير أو صلاة على بوابات المواخير"

آه يا سودان، آه يا جنجويد. لماذا؟

علمت أن الحياة قد بدأت في الخارج حين سمعت صوت عم دانيال بائع الفول وهو يصيح على أحمد المكوجي، و أبواق الاتوبيسات المكدسة بالفقراء وصوت عم عبدو بائع الروبابكيه يحاول جاهداً مقاومة نوبات كحة التبغ الرخيص وهو يصيح عالياً "روبابكيه". وفي وسط هذا الضجيج الذي يعطي شارع سعيد ذو الفقار نكهته الخاصة والتي بدونها تبدو حي المنيل كجثة، باغتتني قائلة في اللحظة التي تذكرت فيها صديقي ممسكاً بعمود المبولة:

"أنا لا أستحقك"

ثم صمتت. وكان هدوء صمتها عنيفاً كعاصفة تحاول أن تثقب أوزون عقلي وتتقيأ فيه.

" أنت تنتمي إلى معتقد غير معتقدي" هل تفوهت بذلك النفي؟ أم أن ... ...

"لم ينطق أحد، ولم يبكي على العمدة أحد. لم يحزن أحد. الحزن ضعف حين يكون على شيخ مات واقفاً، شريفاً، لأنه لم يمت أبداً. نعم، ولكن ما لم يكن في الحسبان قد وقع حين رأيناهم و رأيناها تئن تحتهم. تناوبونها فبكت، صرخت، بحت صوتها، ....، ....، ... وفي الصباح كانت ترقد في قبرها، شريفة النفس وعزيزة الكرامة. يا ترى هل ما زالت تئن ...؟؟؟

اشعرني جهلي بفقداني لمعنى أن أكون إنسان. و شعرت بأن مناخيرها مملوءة بمخاط الغضب تنوي أن تلطخ به وجهي، ووجه العالم الذي لا وجه له. مسحت دموعها بكف يدها كأنها تكشف عن عار صمتنا.

ثم إستطردت:

" لقد كانوا عشرة من الجنجويد. لم يتركوا لي شئ، ولم يتركوا في شئ. هل تظن أنني كنت أستمتع حين ... ...؟ إنك غبي هنالك فرق بين أنين اللذة و أنين الإغتصاب. نعم هذا الطفل ليس إلا إبن لعنة، إبن إغتصاب، إبن زنا...إنتظرتهم ليأتوا ويتخلصون منه، فهم يمجون الرجال لذلك يقتلونهم وهم أيفاع. إنهم يبيدون البؤساء أليس كذلك؟ ابناء قحبة لم يأتوا. ولكنهم بعثوا بجنود الفرعون الأكبر ليدوسون عليه بأحذيتهم المثقل بالكراهية ليس

لسبب بل لأنه إفترش ميدان مصطفى محمود لحافاً وشوّه منظر ذلك الحي القاهري الجميل بلونه الأسود. أسهلت في ذكائي بذلك القول الذي بدد آخر قطرة خمر في دمي ورائحة زيت الطعمية المحترقة آتية من محل فول عم دانيال لتبدد هي الآخر شعوري بالشبع المزيف.

غرقت في مستنقع نفسي. بحثت عن شئ لم أفقده ولم أحصل عليه. كانت أعماقي كغرف، كمتاهات، كسراديب كئيبة ومظلمة قطنتها الأفاعي وعاهرات السياسة. بحثتُ في حلكة مداخل تلك الغرف، كانت المداخل جمة ومتشعبة، وألفيتني أخرج من غرفة لألج أخرى. مشيت في أزقة رطبة، قذرة، وطويلة لا نهائية. هكذا مكثت دهر من الزمن أدور في فضاء خاوٍ، في أرض خراب، في وطن قبيح يغتصب عذراواته.

كيف حدث ذلك؟ سألتها.

لم تتفوه بكلمة، ولم تجفل عيناها لحظة. رمقتني بنظرة من أشفقت على جاهل يرى بعينه ولا يبصر، ويسمع بأذنه ولا يصغ.

قالت: "يبدو أنك من كوكب غير كوكبنا!"

ثم ضحكت وإختفت عن ناظري، بينما ظلت أصداء ضحكاتها ترن في أرجاء عقلي كفكرة قديمة، كهلوسة مرض، ككابوس، كإحتقار.

إختفائها كان مفاجئا وغريبا. ذهبت إلى ميدان مصطفى محمود وسألت عنها كل النسوة. كنت أروي مأسأتها لكل من ألتقيها، لكنهن جميعاً كن يضحكن

على جهلي و أجسادهن تتمزق تحت أحذية جنجويد الفراعنة وهن يحاولن بيأس حماية أطفالهم الرضع من الطلقات المنهمرة لتستقر في أجساد المعذبين وسط ذلك الميدان المشئوم.

" إسمي عائشة... أربعتاشر من جيش الحكومة... في ليلة..."

"إسمي زينب... ثلاثة ضباط..ثم أفرغوا خزينة كاملة على رأس أبكر شقيقي الذي حاول إنقاذي"

"... ... ... وأيضاً والدتي"

ثم ضحكن، وإختفأن كما إختفت الأولى التي التقيتها في ...

"شقيقي آدم إستشهد وهو يحارب المجوس في الجنوب. كان لا بد أن يفعل ذلك. فقد أفتى الإمام بأن الإسلام في خطر ومصائر الأمم في مخالب أشرس من أنياب القدر، ومن يبغى دخول الجنة فعليه أن يلعق بلسانه أفكار الإمام"

"... ... ..."

آه يا سودان، أه يا سودان لماذا؟

ذهبت إلى مقهى وادي النيل وإنتحيت ركناً مظلماً وأومأت إلى النادل، ودون أن يسمع طلبي جاءني بنرجيلة وقهوة وماء. كان المقهى -على غير العادة- خاوياً إلا من بعض كبار السن الذين يلعبون الطاولة بحماس ويدخنون بشراهة ويلعنون غلاء رغيف العيش. فجأة رأيته على الشاشة البلورية يتحدث من على منبر جامع ما في الخرطوم وهو يقول:

"لم يكن هناك إستشهاد في الجنوب، كل ذلك هراء لا يجوز. وكل الذين ماتوا ما هم إلا فطائس عند ربهم يرزقون"

أفتى الشيخ بإبتسامته القوادية لاغياً كل الفتاوي، وكل الإستشهادات بعد أن أرسلهم إلى العذراوات في الجنوب. ألم تستحي يا إبنة القحبة، ألم تهاب الله يا إبن القحبة! هكذا كان يبدل فتاويه كما تبدل المومس عشاقها وفقاً لتخمة الجيوب.

"الأ تخجل يا إبن الشرموطة. الأ تخجل يا إبن الشرموطة. ألا تخجل يا إبن ال..." خرجت الكلمات من فمي وكدت أحطم التلفزيون حتى لا أراه لولا أن النادل قد حال بيني وبين التلفاز وهو يقول:

"لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" ثم نظر إلي بشفقة و إستطرد بعد أن نظف القهوة التي سكبتها على الطاولة دون قصد قائلاً: "يا أستاذ انت شكلك مش عاجبني النهار ده. لازم حضرتك محتاج شوية راحة. آه لازم ترتاح شويه يا بيه." وافقته بإيمأة من رأسي، ثم خرجت من المقهى بعد أن دفعت ثمن النرجيلة والقهوة لأبحث عنها. إستقبلني ميدان التحرير بصخبه وضجيجه وضوء النهار الذي عرى ضعفي وذاد من شوقي إلى حلكة الليل التي تمنحني خصوصيتي وذاتي. لكني آثرت أن لا أبحث عن معشوقتي خشية أن يضحك على الجميع. شعرت بأني فقدت

شيئاً عظيماً، كنزاً عزيزاً وشعرت بأن شئ واحد لم يفارقني منذ ذلك الوقت وإلى الآن: نعم شعرت بأنني مخلوق من كوكب آخر، وكرهت إني رجلاً.

*** *** ***



يوم تُشيب الغُربان

أرهف أذنيه المهبرتين، أنها الثالثة صباحاً، وقع خطوات ثقيلة لشخصين يترنحان مزقت سكون الليل كانا يتغنيان بصوت أجش، و كصرخة استغاثة غريقٍ يصارع ضربات موجٍ ناجخ جاءت ضحكاتهم فاضحة، عارية، كانت هناك لغتان: انجليزية بلكنة افريقية، وإنجليزية هوليودية تخللت الضحكات. نعم هي عقيلته، مائة وخمسون بقرة كانت مهرها. غاصت درجات السلم في صمت عقيم، همسات، لمسات، خشخشة عراك شفتاهما، عواء كلب ضال يشق ضباب لندن الكثيف، أحس برأسه كمرجل يغلي فيه الدم، صداع، ارتعاد الغضب، بلغت ظنونه ذروات شاهقة، لاحقته الشائعات وهو في أرض الوطن، داسها، وكذبها جميعا، أنها زوجها التي دأبت على السهر في ملاهي عاصمة الضباب ولا تعود إلا في الهزيع الأخير من حُلكة الليل، صرير مفتاح على الباب، فتحته بعد مشقة، وصفقته خلفها بعنف، كانت متأبطة ذراع أحدهم أشقر الشعر، أبيضه كالجليد، عطّر مجيئهما هواء الشقة المتقلب بأفكاره، إنها رائحة الشراب الإفرنجي، انتفخت رئتاه بأكسجين الحنق فأخرج زفرة غضنفرية أطلقها في الهواء، تفادى مساءلتها ومن معها، تظاهر بعدم الاكتراث، ترنحت، تعثرت،

كادت أن تهوى على الأرض، طوقها الآخر بيديه الملساء تين، أرسلت سباب غنج ودلال: " اوه ماي لاف" قالت ذلك دون أن تهتم بوجود زوجها، الآن فقط تأكد عن كل ما قيل عنها، للم شيئا من فتيت شجاعته وسألها.

كان ذلك في الأسبوع الفائت عندما لطمها، فعاش يوماً قمطريراً مشئوماً لقنته فيه الشرطة الإنجليزية درساً قاسياً عن معنى احترام الزوج. " أي انت راجل لكن وينو إيجار وينو أكل. مش كان أحسن تقعد في السودان! "

فضحته أمام الجميع، جيوبه احتلتها الخيّم العنكبوتية، فكيف يملك القرار؟ صمت، انعقد لسانه، أحسّ بأن جزءاً كبيراً من سقف رجولته انشرخ بفعل ضباب لندن وهوى على كرامته، رجولتي، نعم رجولتي! قال في نفسه، ضحكت ابنته ذات الأحد عشر ربيعا، انضمت إلى حزب أمها، أنكرته، إستريش جينز ميني جيب قائلة:

He is useless mom.

كانت أيام، قال في نفسه التي حطمتها حرية المنفى، أنشد بيتين من الشعر دون أن يتذكر صاحبها:

" نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحب إلا للحبيب الأول

كل منزل في الأرض يألفها الفتى

وحنينه أبدا لأول منزل"

لعن الحرب، لعـن الجبهـة، بصـق في عقـل الديمقراطيـة، وفـاق، ائـتلاف، اختلاف... بحفنة من العربات المُجَنزرة بـاعوا عذريـة طفلـة مفطومـة لـذاك الرجل، جوَعها، صفّدها، اعتدى عليها على قارعة الطريق، أما هم فتبعثروا في أديم الأرض يطيرون ويتغنـون خـارج السـرب: "سنعود في الصيف القـادم بإذن الله يوم تشيب الغربان" زفت في زفت في زفت" صاح عالياً، وهل بصـياح الغراب يجيء المطـر؟ بلغـم أسـود بصـقه علـى الموكيـت، رأى نفسـه في مـرآة ذاته، أجرب قمئ تبذه الأهل والصحاب، يسد رمقه بقـروش المـواخير الـتي تجلبها الزوجة: "آه يا دنيا يا بـت أم قـدود!" قالهـا بـاشمئزاز، اسـترجع وعيه، رآها تغير ملابسها، نسي نفسه برهة، ونسى أنها زوجـه، ظـن أنـه أمـام مشـهد سـينمائي مـثير، تلاهثـت أنفاسـه، كـان الأبـيض جاثيـا علـى ركبتيه، أنتفض فجأةً، تذكر أنها عقيلتـه، "كـرامتي!" قالهـا بصـوت عـال كأنـه يحـدث سـكان لنـدن، رعـدة عنيفـة هـزت سـويداء قلبـه، هـاج كثـور المتادور، هب، قفز قفزتين، امتشق مدية تومض كالبرق، أحكم قبضته علـى عنق الرجل:

-"What do you want?" نطق الأشقر كفرا...

-"كان إت ولد هتلر ولا موسوليني ولا يانكي، أنا حا أوريك يا عواليق.."

بسرعة حالت زوجه بينهما ولاطفته، طبعت على خده قبلة متكلّفة وأهدته قنينة أفرغها في جوفه سريعا، ارتخت قبضته، رمى بالمدية بعيدا، تركتـه

وغاصا في عتمة الغرفة، بقى وحيدا يجتر مرارة اللجوء في صمت: أنا زوج ولا ضيف؟ سؤال اختمر في رأسه، خال نفسه في ميدان أبوجنزير بالخرطوم ملتفا بجمهرة من النساء يهتفن: " ات ما سوداني؟ ات ما سوداني؟" أقلقه هذا الهتاف، أخذ المدية مرة ثانية، هرع صوب الغرفة المعتمة، وقبل أن يدخلها تعثر ووقع على الأرض، ثم راح في سبات عميق، عندما أستيقظ في اليوم الثاني، وراجع شريط الأمس القريب، أختلط عليه الأمر، فأعتقد أنه كان في حلم مرعب، انفرجت أساريره لأنه حلم وليس حقيقة، ضحك مجلجلاً، صمت.

Hi good morning!-

من يكون؟ التفت، رأي اليانكي الذي كاد أن يفتك به في يقظة حلمه آتيا من الحمام، نصف عار، وقد غطى وسطه بمنشفة صغيرة كتبت عليها بالإنجليزية: لايف إز شيرنج.

انتهت ...

آرثر ياك

الفهرست

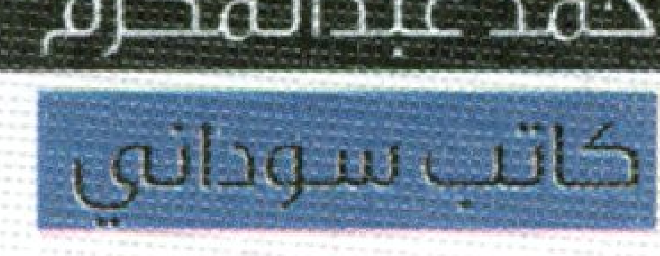
"أنت أب أو أم هذا لا يهم، المهم هو أن تذهب إلى هناك. ما أثقل جثث اللاجئين !..".
هكذا نسير نحمل جثث الآخرين في ذاكرتنا ونترك جثتنا حيث تهوي دون معين سوى كلمات عربية مطعمة بالانكليزية لكاتب أتى من ركام التجربة ليقف بالمقدمة حاملا أوجاع النوستالوجيا في ذاكرة تتقد وتتوهج بين مباشرة الكلمة ورمزية النص تتكئ على تراث من القهر ورؤى مسرحية يكللها الحرمان والضياع ومأساة التجربة الإنسانية التي تعاش مع آلام البلد والمنفى، تأخذك بنزهة طوعية تغص بالشاعرية.. شاعرية لا تكفي لإزالة بقع الدم الموجعة، المتناثر على لحم الذاكرة "أيه دارفورية حلال على جند الله". مضاجعة أطفال الكفار ليس بحرام" نعم أفتى الشيخ بعد أن توضأ بدم طفل. آه يا جنجويد، آه يا سودان. لماذا؟

دمشق - آذار ٢٠٠٩

هوازن خداج

كاتبة وفنانة تشكليلية سورية

" صور منتزعة من صميم تيار الحياة الواقعية الجارفة بعلاقات اللامعقول التي تبطنها ...وتدثرها بنتائجها الفظيعة التي جردت الإنسان من أحلامه المشروعة في أن يحيا حياته دونما أي تعسف.. ينتهكها.. حد إلغاء إنسانية الإنسان..." " لا يفرق بين شمالي وجنوبي فالكل عنده ضحية لعبث الأنظمة ديمقراطيها ودكتاتوريها"





مؤسسة القلم العربي للنشر والتوزيع
e-mail : info@3lsooot.com
site: www.3lsooot.com
أشمل خدمات للناشرين والكتاب والمؤلفين العرب